الزّهاوي

(١٢٧٩ هـ - ١٣٥٥ هـ)
(١٨٦٣م - ١٩٣٦م)

الدكتور داود سلوم

١ - المقدمة :

تغير الزمن ولكن ما زالت المقاييس هي هي • فقد شاعت في عصرنا هذا مقاييس في النقد معينة فمن لم يقع تحت هذا المقياس أو من لم ينطبق عليه الحكم انطباق الخط على المسطرة فهو شاعر لا خير فيه •

وان هذه المقاييس فيها ولا شك كثير من القسوة اذ يضحي في سبيلها بكل قابليات الشاعر الفنية التي هي الاصل في التفضيل بين الشعراء والتقدير لانتاج الشاعر أو الاديب •

ومن هذه المقاييس (المقياس السياسي) الذي أخذ به بعض شباب النقاد فقد نظروا من خلاله الى انتاج الشاعر وتلون الحكم على شاعر اوآخر بلون عقيدة الناقد •

ومن طبق عليه هذا المقياس بين الشعراء : الزهاوي والرصافي •

فقد قدرت قابليات الزهاوي بمقدار عقيدته السياسية واخلاصه لهذه العقيدة وفي هذا كثير من الغبن للزهاوي فما العلاقة بين اجادة الشاعر في فنه بوصفه شاعرا وبين عقيدته السياسية الضعيفة أو القلقة •

ألا يجدر بنا أن نفصل في حكمنا بين « الخلق الشخصي » و العمل الفني » فان كليهما قائم بذاته ولو اننا من المؤمنين بأن التأثير بينهما وفي بعضهما متبادل أحيانا •

فالشاعر القديم قال « ينفعك قولي ولا يضرك تقصيري » وهذا مبدأ أحرى

به أن يطبق على الشعراء وان يميز الناقد بين انتاج الشاعر وسيرته أو خلقه أو طبعه •

ليكن أبو نواس من يكون فهل يمنع هذا من المتعة الفنية بقراءة خمرياته واستحسانها •

ليكن المتنبي من يكون فهل يمنع هذا من التمتع بحكمياته ؟ ليكن أبو العلاء مشركا أو مؤمنا ولكن هذا لا يمنع من التمتع بهذا العمق الحزين أو التفكير المتأمل في الكون والحياة • فما يضير أن يكون الزهاوي قد خان عقيدته وما ينفع اخلاص الرصافي لها اذا كان هدف الناقد البحث هو قيمة الادب الذي أنتجه الاديب ؟

نعم • تغير الزمن ولكن ما زالت المقاييس هي هي • فان النقاد حاولوا أن يتخذوا من عقيدة أبي تمام نقطة تحامل وهجوم على شعره ومن دين هذا ومن مذهب ذاك معولاً لهدم صرح الجمال الادبي في شعر شاعر أو أسلوب أديب •

فأبو نواس اتهم بالشعوبية واتهم بشار بالزندقة واتهم أبو العلاء بالالحاد واتهم المتنبي بادعاء النبوة •

نرجو ونأمل أن يتنبه نقاد العصر الى ان « الجمال والابداع » هو هدف الناقد وليس بمانع لدينا من البحث من سيرة الشخص وتحليلها على حقيقتها ولكننا نرى بأسا في اتخاذ هذه السيرة كمقياس لتقدير أدب أديب وشعر شاعر •

واذا كنا نريد أن نبني حضارة كحضارة الذين ساكنونا العراق من البابليين والآشوريين • واذا أردنا أن نعيد مجد أجدادنا العرب ونحن دون شك على الطريق اللاحب الطويل في تطعيم القديم بالجديد من الحضارتين الاسلامية والحديثة فعلينا اذن أن نصحح مقاييسنا وما أضعف البنيان اذا كان أساسه واهيا واني أعلم بأننا بناة الاسس لهذه الحضرة الحديثة فنحن من الاجيال الاولى التي عاصرت فترة الانتقال هذه •

ولذا فأن القارىء لهذه المقالة سوف لا يجد فيها تحاملا بل يجد فيها كشفا صريحا عن السيرة الشخصية مع تقدير مجرد منفصل لادب الاديب أو شعر الشاعر لا علاقة بينه وبين الانطباع السائد عن الشخص وأعتقد اني في هذا قد

اقتربت خطوة من الحقيقة المجردة لافادة القارىء دون التأثير عليه وتحميله جريرة خطأي أو تحاملي .

٢ ـ حياة الشاعر :

ترك لنا الزهاوي ترجمة مقتضبة عن حياته وكانت غفلا من التواريخ فرأينا أن نقتبسها ونضع أمام أحداثها التواريخ ليعرف القارىء تسلسل الحوادث في حياة هذا الشاعر الفذ . قال الزهاوي :ـ

« أبي مفتي بغداد محمد فيضي الزهاوي وهو كردي ينتسب الى أمراء السليمانية البابان وهؤلاء ينتمون الى خالد بن الوليد وشهرته بالزهاوي هي لان أباه « الملا أحمد » هاجر الى زهاو وسكنها سنين ... وأمي السيدة فيروزج من أسرة وجيهة كردية . وقد ولدت في بغداد يوم الاربعاء آخر ذي الحجة سنة ١٢٧٩ هـ الموافق حزيران سنة ١٨٦٣ م .

... عينت في شبابي عضوا لمجلس المعارف في بغداد (١٨٨٥ م/١٣١٣ هـ) ثم مديرا لمطبعة الولاية ومحررا للزوراء الرسمية (١٨٨٨ م/١٣٠٦ هـ) ثم عضوا لمحكمة الاستئناف (١٨٩٠م/١٣٠٨ هـ) وسافرت في أوائل كهولتي الى الاستانة (١٨٩٦ م/١٣١٤ هـ) فابلغ جلالة السلطان عبدالحميد اني ضد حكومته فبث عليّ جواسيسه ثم أرسلني في صحبة البعثة الاصلاحية واعظا عاما لبلاد اليمن ـ (١٩٠٠ م/١٣١٨ هـ) ثم رجعت بعد أحد عشر شهرا الى الاستانة فأنعم عليّ جلالته برتبة « بلاد خمس موصلة .. » و « وسام مجيدي » من الدرجة الثالثة واتصلت بأحرارها فزاد جلالته عدد الجواسيس عليّ . ثم سجنت وسفّرت الى بغداد مخفورا على أن لا أبرحها وعين لي راتب شهري قدره خمس عشرة ليرة..

ولما أعلن الدستور (١٩٠٨ م/١٣٢٦ هـ) عدت الى الاستانة فعينت بعد وصولي بقليل استاذا للفلسفة في الجامعة الملكية واستاذا للآداب العربية في دار الفنون (١٩٠٨ م/١٣٢٦ هـ) ... ثم اشتد مرضي الذي كان قد أنشب بي أظفاره في شبابي فرجعت الى بغداد معلما للمجلة في مدرسة الحقوق ونشر لي بعد برهة مقال في المؤيد دافعت فيه عن المرأة فأثار عليّ الشعب بايعاز من أعدائي وأرادوا

اهانتي واهلاكي ولم أخرج من بيتي اسبوعا وسعى أحدهم الى ناظم باشا وهو يومئذ والي بغداد ليعزلني عن وظيفتي (١٩٠٨ م/١٣٢٦ هـ) ودافع عني كبار الكتاب في مصر وسوريا وأعادني جمال باشا (والي بغداد بعد ناظم باشا) الى وظيفتي ثم انتخبت نائبا عن المنتفق ثم عن بغداد فذهبت مرارا الى الاستانة وحضرت جلسات البرلمان العثماني وخطبت فيه مرات كثيرة .

ولم أبرح بغداد يوم سقوطها في الحرب الكبرى وقدّم عدوٌ لي تقريرا الى السلطة المحتلة يحسّن فيه ابعادي عن بغداد مع عدد من وجوهها ولكنني نجوت ساعة قبضوا عليّ باراءتي بطاقة فيها اني مكاتب « للمقطم » أما الباقون فأخذوا أسرى الى بلاد الهند القاصية وكنت أجامل الحكومة المحتلة في خطبي وأذكرها بوعودها مطالبا باستقلال البلاد فكانت مجاملتي تغضب الاهلين ومطالبتي ترضيهم . وعينت في أشهر الاحتلال الاول عضوا لمجلس المعارف (١٩١٦/ ١٣٣٥ هـ) ثم رئيسا للجنة تعريب القوانين العثمانية فعربت سبعة عشر قانونا بين صغير وكبير .

وحدثت ثورة ١٩٢٠ فلم أشترك فيها العلمي بوخامة عاقبتها فساء ذلك الاهلين ثم لما استفحل الامر جمع فخامة الحاكم العام السيد (ولسن) مندوبي الشعب الذين انتخبهم في ثورته وجمع معهم نفرا من وجوه بغداد وكنت أحدهم وفي ختام المحاورة قمت وصرحت باشتراكي مع مندوبي الشعب في طلب الاستقلال التام ولم تنتج المحاورة وفاقا . وجاء فخامة المندوب السامي السير برسي كوكس فوعد وأرعد وخطبت يوم استقالته فطلبت أن يرأف بالناس وقد أخمد فخامته الثورة بالقوة ووعد بالاستقلال وجمع فخامته النواب السابقين عن العراق مع عدد من وجوه العاصمة والف منهم لجنة لسن نظام انتخاب المؤتمر العراقي وكنت عضوا فيها وصححت النظام بقلمي ثم ألف وزارة برئاسة سماحة النقيب وهو شيخ يتراوح سنه بين الثمانين والتسعين فما وسعه الا أن يأتمر بما يشار وقد فرحت أخيرا لعدم دخولي الوزارة لاني بقيت سالما من قذف الاهلين وشتائمهم .

وجيء أخيرا بجلالة فيصل لتتويجه ملكا على العراق فأقامت له الاندية والمعاهد حفلات شائقة وكنت أؤمل فيه اعادة مجد العراق ... فأنشدت في كل

حفلة قصيدة أرحب به فيها وأنفخ فيه روح الحماسة أريد أن يسعى لتحرير الشعب ونيلهم الاستقلال .. وأول ما كان هو الغاء وظيفتي في العدلية وقطع راتبي وعلمت انه سيقطع كذلك راتبي في المعارف فتركته من نفسي وبقيت بلا راتب بعد ان كنت أستلم سبعماية (كذا) وخمسين ربية في كل شهر . وأخذت جريدة العراق تنشر لي كل يوم في صدرها احدى الرباعيات وفي كثير منها نقد لما كان يجري يومئذ ثم تبوأ جلالة فيصل عرش العراق رسميا . وبعد أشهر من الغاء وظيفتي وصلني مغلف من البلاط الملكي يبلغني في داخله رئيس الامناء ان قد صدرت ارادة جلالة الملك بتعييني شاعرا له براتب شهري قدره ستمائة (كذا) ربية أعطاها من صندوق البلاط الخاص فكتبت اليه اني أرفض هذه الوظيفة فلا أريد أن أكون مداحا تلقاء أجرة اعطاها واني اذا شاهدت ان جلالته يخدم بلادي أمدحه على خدماته بدون أجرة وحينئذ يكون لكلماتي تأثير أكبر مما اذا أمدحه وأنا أجير . وأتذكر اني بعد التصريح بالرفض كتبت اليه ما نصه :ـ

« ومع ذلك فانني لا أزال ذلك العصفور الذي يغرد بمآثر جلالته اعجابا بها لا طمعا بحبات تلقى اليه .. » وقابلني بعد شهور وجيهان من وجوه البلد يقولان اننا مرسلان من البلاط لمفاوضتك فأن جلالة الملك يريد اذا وافقت أن يصدر ارادة هذه المرة بتعيينك شاعرا له ومؤرخا للعراق معا براتب شهري قدره ثماني مائة ربية (كذا) على أن تتسلم هذا الراتب من تاريخ التكليف الاول وكان قد مضى عليه أكثر من ستة سهور فأجبته أما المؤرخية فأقبلها واما الشاعرية لجلالته بأجرة فلا . فقالا : لا يريد جلالته فصلهما وأصرا وأوعدني أحدهما فلم أخضع .

وتهيأت للسفر الى مصر ... غير ان الاضطرابات الاخيرة التي حدثت في سورية سنة ١٩٢٢ قد سدت الطريق في وجهي فثبطت عزمي .. وبقيت الصيف كله في بغداد .. وانفتح الطريق في الخرنف واذا برجلي قد زلت وأنا أتمشى في داري فسقطت على الآجر المرصوف وكسر عظمان من قدمي اليسرى فلزمت الفراش مدة خمسة أشهر لا أستطيع الوقوف عليها . »

وسافر الزهاوي الى مصر عام ١٩٢٤ ومرّ بدمشق وبيروت وفيها طبع

(رباعيات الزهاوي) وفي القاهرة طبع (ديوان الزهاوي) وقد احتوى الديوان على ديوانه السابق (الكلم المنظوم) المطبوع في بيروت عام ١٣٢٧ هـ/١٩١١ م وعلى قسم من الرباعيات كبير.

وسرعان ما عاد الشاعر ثانية الى بغداد وأصبحت علاقته علاقة حسنة مع فيصل الا انه اعتزل التوظيف وبقي ينظم الشعر ويعيد طبع مختارات من شعره ويضيف اليها ما ينظم من شعر جديد فطبع (اللباب) عام ١٩٢٨ في بغداد ثم (الاوشال) وظهر له ديوان (الشمالة) وقد طبع الديوان الاخير عام ١٩٣٩ أي بعد ثلاث سنوات من وفاته وللشاعر تآليف كثيرة في الفلسفة والسياسة .

ان القارىء الذي يقرأ آثار الزهاوي يخرج بنتيجة قطعية هي شكوى الشاعر من مجتمعه وتذمره وبأنه لم يحصل على الاحترام والحقوق التي تجب له بوصفه شاعرا ومفكرا . والحق يقال ان الزهاوي كان أحسن عقلية ولدت في فترة الانتقال بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . فما هي الاسباب التي جنت على الزهاوي ولماذا هذا الحرمان من الحب والاحترام والتقدير ؟

هناك أسباب مختلفة منها :ـ

أ ـ السبب السياسي :

ان الزهاوي بوصفه معجبا بالعلوم الاوربية والتفكير الاوربي السياسي كان من أوائل الذين تأثروا بالتيارات الفكرية الحديثة التي جاءت من أوربا ونفذت الى تركيا وشاعت في الاستانة بوساطة الصحافة والتراجم والدعاة السريين والجواسيس الذين كانوا يشتغلون ضد مصالح تركيا والمسلمين ويحاولون ان يثبتوا أقدام الاستعمارين الانكليزي والفرنسي . ولما كان السلطان يمثل رمزا قديما من الطغيان الذي لا يخضع لقانون أو دستور فقد كان الزهاوي يجامله مرة ويهجوه أخرى .

فهذا نموذج من مدائحه :

لسلطاننا عبدالحميد سياسة طريقتها في المعضلات هي المثلى[1]

وقال :

ماذا على السلطان لو أجرى الذي تشتاقه الاحرار من اصلاح
تالله لو منح الرعية حقها لفداه كل الشعب بالارواح[2]

ولكن الظاهر ان السلطان كان بعيدا كل البعد عن أن يعطي الاحرار ما يشتاقونه فقد كان يسجن ويقتل وينفي من يشك به وكان منهم الزهاوي فقد أرجع مخفورا الى بغداد وهنا يسجل الزهاوي ذلك :ـ

ويممت دار الملك أحسب انني اذ كنت فيها نازلا أتمتع
واني اذا ما قلت قولا يفيد في مصالحها ألقيت من هو يسمع[3]

وسرعان ما وقع الزهاوي تحت تأثير الانكليز منذ وقت مبكر ولعله اتصل ببعض وكلائهم في القسطنطينية فمما لا ينكر ان أغلب الشباب العرب هناك كانوا تحت تأثيرهم الفكري بصورة مباشرة أو غير مباشرة كالزهاوي والرصافي ومن الساسة نوري السعيد والهاشمي وغيرهم • كما ان الشباب العرب الذين كانوا في فرنسا كانوا تحت تأثير الاستعمار الفرنسي فالزهاوي مدح الانكليز وقال :

ووال الانكليز رجال عدل وصدق في الفعال وفي الكلام[4]

وقال من قصيدة أخرى عن دولة الانكليز :

دولة بالعدالة استمسكت والـ ـعدل في السلم سُلَّم للتسامي

وعلى هذا فان الزهاوي وصل الى درجة مكاشفة السلطان صراحة بعدائه فقال يخاطبه :

يا رقق الله منك القلب من ملك يجمّع المال لكن من مساعينا
في عهده صار يبكي الحيف أعيننا دما ويضحكه ما كان يبكينا

---

(١) الكلم المنظوم ص٤ •
(٢) نفس المصدر ص٢ •
(٣) نفس المصدر ص ١٠
(٤) نفس المصدر ص ١٤ •

ان الرعيـة أغنـام يحـدُ لهـا عمالك المسـتبدون السـكاكينا

وقد انعكس مثل هذا الشعر في القصائد التالية :ـ

« حتام تغفل »[٥] « وأنين المفـارق »[٦] و « الصـارخة »[٧] و « النادبة » و « العدل »[٨] و « يا عدل » الخ .. الخ ..

وعلى هذا فان الشاعر قد كسب من وقت مبكر عداوة رجال الدين في بغداد وهم الذين يعيشون اذا ما استمر سلطان الخليفة سلطانا اتوقراطيـا وتضعف شخصيتهم اذا ما أضعف الخليفة وكانت هذه المجموعة من رجال الدين الحاقدين على هذا المارق الذي يهاجم الخليفة وهو ظل الله على الارض ـ فكانوا يتحينون له الفرص فطرد من القسطنطينية وحين جاء الى بغـداد وتعين في كليـة الحقوق سرعان ما أثاروا العامة عليه بتهمة الالحاد ولكن التاريخ كان بجانب الزهاوي فما مرت الا سنوات قليلة حتى دخل الانكليز بغداد .

ومما يؤيد اشتغال الزهاوي للسياسة الانكليزية وخضوعه لها انه لم يقبض عليه وادعى انه أظهر للسلطة بطاقة له تشرح بأنه مراسل للمقطم المصرية وكانت هذه الجريدة جريدة انكليزية في سياستها واتجاهها .

وكانت مس بيل تدعوه في رسائلها . « شاعرنا » واذا لم يكن لضمير الملكية « نـا » معنى الخضوع لسياستهم والدعوة لها فما هو معناه ؟

وسرعان ما اشترك غضب رجال الدين بغضب القوميين العرب والمحاربين في سبيل استقلال العراق . فهو لم يعرب عن رضاه عن الثورة واتهم روح الجماعة وكان فرديا في تفكيره . ولما قامت الثورة وانتهت اضطر ازاء الضغط من الوطنيين الى رثاء ضحايا الثورة العراقية وحين قضى الانكليز على الثورة وجاءوا بفيصـل حاول العودة الى مداره القديم ولكن الذي يبدو ان السياسة الانكليزية قد نفضت يدها منه وبخاصة انه عاد غير ذي فائدة لها . فحين تشكلت الوزارة الاولى لم يكن بين أعضائها وعلى هذا فهو لم يكافأ على خدماته فاشتدت نقمته على فيصل وأراد

---

(٥) نفس المصدر ص ٦ .
(٦) ن. م ص ٩
(٧) ن. م ص ٢٤
(٨) ن.م ص ٣٤ .

فيصل أن يقلم من أظفاره فألغى وظائفه وأراد اخضاعه فكريا للبلاط فتمرد عليه وكانت المعارضة لا تفتأ تتجه ضده لاخطائه القديمة التي أصبحت جزءا من التاريخ ولم تغفر له المعارضة ما مضى فاضطر الى السفر الى مصر .

ان الحقيقة هي ان الزهاوي في فترة الاحتلال حتى عام ١٩٢٤ كان تحت تأثير تيارات مختلفة . فالتيار الوطني واضح في شعره . قال بعيد الاستقلال :

يا أيدي الظلم شلي ... ويا بلادي استقلي
ويا رجاء تعزز ... ويا مصاعب ذلي
وأنت يا راية النصر ... أخفقي وأظلي[٩]

وهذا هو يخاطب سير برسي كوكس مادحا بعد أن قضى على الثورة :ـ

ارأف بشعب بغاة الشر قد قصدوا ... اثارة الشر فيه وهو ما قصدا[١٠]

لكن الذي لا شك فيه ان عقيدة الشاعر الثابتة هي الوطنية الخالصة والحب العميق المدهش للعراق بصورة خاصة . فلم يغن شاعر ما بحب العراق كما غنى الزهاوي . والزهاوي بعد ذلك واحد من أبناء جيله الذين تعرضوا لنفس الاخطاء من سياسة التذبذب الفكري فلماذا يضطهد وحده ؟

ب ـ السبب الديني :

ان الاسلام دين بسيط عقيدته تتلخص بوجود خالق وهو الله الذي خلق الكون والانسان والروح وترك الله عباده يعملون في هذه الحياة الدنيا ان خيرا وان شرا ثم هو معاقبهم أو مجازيهم بالشر شرا وبالخير خيرا .

ولكن هذه الصورة لم ترق الزهاوي بهذه البساطة فهو لم يقبلها وفي الحق انه لم ينكرها ولكنه قضى حياته كلها يتساءل عن صحتها . وهو نفسه لم يقطع بشيء من هذه الاشياء ولكن هذا التساؤل في حد ذاته كان سببا من أسباب جلب النقمة على هذا الشاعر الفذ ويستحسن أن نستعرض أفكار الزهاوي المتناقضة في هذا الباب ونريد أن نخرج بحقيقة واحدة هي ان المعارضة العنيفة التي جابهها

(٩) ديوان الزهاوي ص ٢٩٥ .
(١٠) نفس المصدر ص ٣٢٠ .

الزهاوي لم تكن من الحق في شيء فهو لم يكن ايجابيا في جانب من هذه الجوانب التي سوف نعرض لها فلماذا يلام ويشتم ويعمد الى قتله على شيء لم يعتقده ؟

قـــال :

ان ســيرقى روحي لا لمـــع نجـم وسيبقى في وهـدة القبر جسـمي

وهو هنا يقول مع الذين يقولون بفناء (الروح) :

فظـــن بقاءهـــا حتمـــا أنـاس وعـــدّ بقاءهـــا قـوم محـــالا
وقـــد قلنـــا به ونفـــاه بعض وان لنـا مع النـافي جـــدالا[١١]

وهو هنا ينكر بعث (الروح والجسد) :

لقد طال ليـل المؤمن القـانع الذي ثوى في ظـلام القبر ينتظر الفجرا
يؤمـل بعـــد الموت عود حيـاته فقد وعدوه بعد طيّ له نشرا[١٢]

ولكنه في نفس القصيدة يتساءل اذا أفلت مجرم من العقاب في الحياة الدنيا ولم ينتصف منه وظل المجنى عليه مظلوما لم ينتصف له فمتى اذن يؤخذ الحق ؟

ودعاه هذا الى العودة الى الايمان ووجوب البعث لمعاقبة الجـاني وجزاء الخيّـــر :

فلو لم تكن دار يجـازى بها الفتى تساوى اذن من يفعل الخير والشرّا

ويقـــول :

وانك في أعمـــاق قبرك لا تـرى وجوهـا ولا في القبر تسمع أمواتا
ولست بمســـؤول اذا ما سـكنته أكنت عبدت الله قبلا أم اللاتا[١٣]

ويقول بقدم العالم :

ان كـــونا أراه لا يتنـــاهى ما تلقى وجوده باختـراع[١٤]

---

(١١) الكلم المنظوم ص ٤٥ (١٣٣٢ هـ) (١٣) ديوان الزهاوي ص ٤٣ ...
(١٢) نفس المصدر ص ١١٧ . (١٤) ديوان الزهاوي ص ٤٤ .

ويقول بفناء الروح مرة أخرى :

فاذا مات مني الجسم فالروح تموت[١٥]

ويشك في البعث :ـ

وانما خوفي من شك لقلبي مؤلم
في ان أعود بعد ما تبلى بقبري أعظمي[١٦]

ويقول في انكار الجحيم :

ان ... التي قد أرهبوك بها فما سمعنا لها من شاهد خبرا

وفي ديوانه الاخير نجد نفس الحيرة والقلق ولكنه أخذ يتنصل من كثير من أفكاره الجريئة بعد ان قاربت حياته نهايتها :

ولعل هذا الموت مبدأ رحلة للروح خالدة وراء الازمن[١٧]

وفي هذا النص الاخير الذي هو من أواخر ما كتب ـ يبدو فيه الشاعر وكأنه أراد أن يترك شيئا مما قاله وان ما قاله لم يكن يعتقد به اعتقادا راسخا أو جازما فقال :

أنا ما برحت ولا أراني أرح بين الظلالة والهدى أترجح
ما كل أقوالي بنات عقيدتي اني لفي شعري أجد وأمزح
يا جذا لو ان روحي بعدما تلقى المنية في المجرة تسبح[١٨]

وبعد ان أنكر الجحيم في بيت سابق أول شبابه نراه يقول :

أراك تخاف النار نار جهنم وانك أنت المؤمن المتفائل[١٩]

وهو من الذين كانوا يعتقدون بالداروينية وجلب هذا له أيضا كثيرا من النقد والمعارضة التي لا مبرر لها لانه كان ينقل آراء غيره :

عاش في الغاب القرد دهرا طويلا قبل أن يلقى للرقي سبيلا

---

(١٥) اللباب ص ٢٤٤ .
(١٦) لباب ص ٢٣٨ .
(١٧) الثمالة ص ١٥ (١٩٣٥)
(١٨) ن.م ص ١٨ (١٩٣٥) .
(١٩) ن.م ص ٢٦ (١٩٣٥) .

ولـد القرد قبـــل مليون عـام بشرا فارتقى قليـلا قليـلا(٢٠)

ج - السبب الاجتماعي وقوة التقاليد:

ان بعض العادات والتقاليد كانت وما زالت من أسباب تأخير الشرق • وان مفكري الشرق في القرن التاسـع عشر وأوائل القرن العشـرين رأوا ضرورة الثورة على هذه العادات والتقاليد البالية وتشجيع الناس على التخلص من ادخار القديم غير النافع مع الاحتفاظ بالجوهر الصالح من الروح الشرقي •

ولكن لم يملك الشرقيون خاصة في الشرق الاوسـط نفس الروح التي يملكها أولئك الرواد الصالحون ومنهم الزهاوي فهذا هو يشرح نفسيته الثائرة ونفسية جيله المتقاعسة الثابتة على القديم الذي لا نفع فيه :

واني أرى بيني وبين جمـــاعة •••• من الناس في العصر الذي ضمنا بونا
فهم عبـدوا العـــادات لا يخرقونهـا وان كابدوا منهـــا الخسـارة والغبنا
واني أرى ان اختـــراق ســـتارها يهون لدى ذي حكمة سبر الكونا(٢١)

ويرى الزهاوي ان هذه العادات لا يمكن أن يخلعها الا الجريء وان هي الا تراث سيء وضعه أناس حمقى قال :

انهـــا العـــادات لا يخلعهـــا غـــير ذاك المـــارق المنطـــلق
قـــد تلقاهـــا تراثا سيئـــا أحمق عن أحمق عن أحمق(٢٢)

ومن العادات والتقاليد الاجتماعية التي كافح ضدها الزهـاوي وسببت له كثيرا من المتاعب والتهجم مشكلة المرأة • فقد جرت تقاليد المسلمين حتى ١٩٣٠ تقريبا الى عزل المرأة عن مجتمع الرجل وحرمانهـا الى حـــد كبير من التعليم والتثقيف والسفور •

ولما كان الزهاوي يريد التقدم لمجتمعه فكان على هذا المجتمع أن ينفض عنه

---

(٢٠) الشمالة ص ٥٨ •
(٢١) الكلم المنظوم ص ١٣ •
(٢٢) ديوان الزهاوي ص ٤١١ •

غبار الماضي ويحاول أن يحرر ويعلّم هذا النصف المشلول • فعالج الزهاوي مشكلة المرأة من عدة نواحي •

عالج مشكلة المرأة من ناحية (الحجاب) واعتبر هذا الحجاب أمرا تقليديا لا يعود للدين فقال :

ان هذا الحجاب في كل أرض ضرر للفتيان والفتيات
لم يكن وضعه من الدين شيئا انما قد أتى من العادات(٢٣)

وعالج مشكلة المرأة من ناحية طريقة الزواج والخطبة في الشرق مع انعدام رؤية الزوجة لزوجها قبل الزواج واعتبر ذلك جريمة اجتماعية تسبب المشاكل والمتاعب :

اذ زوجوها من فتى ما ان رأته ولا رآها
زفت اليه فلم تجد شيئا جميلا في فتاها(٢٤)

وحمل كذلك على تزويج الفتيات من الشيوخ الذين يعجزون عن اسعاد زوجاتهم • وهاجم الطلاق الآني وهو ان يقول الزوج لزوجه هي طالق ثلاثا فتحرم عليه • وقال :

يأتي الطلاق لغير ذنب ثم يحسب ذاك رشدا(٢٥)

وقال :

يسومها خسفا فأن تذمّرت طلّقها

وانتقد تزويج الفتيات بالاكراه :

زوّجوها من غير ما هي ترضى من غلام غمر أخي سيئات(٢٦)

وكتب ضد تعدد الزوجات ورأى فيه خطرا على سلامة وهدوء العائلة :

لا ربع محصنات منهن يكفل بعل

---

(٢٣) ديوان الزهاوي ص ٣٠٩ •
(٢٤) نفس المصدر ص ٣١٧ •
(٢٥) نفس المصدر ص ٣١٦ •
(٢٦) ديوان الزهاوي ص ٣٠٩ •

وكـــل ذلك منهـــم اذا تأملت جهـل[٢٧]

وكانت المقاومة من هذا الجانب على أشدها ضد الشاعر فقـد أخرج من عمله في كلية الحقوق لهذا السبب وقد هاجمته الغوغاء يريدون قتله فبقى اسبوعا في داره لا يخرج وحين هدأت الامور ومضت سـنون عـديدة عـلى ذلك كانت المعارضة تذكر هذه الثورة الاجتماعية فتكيده عليها • واضطرته المعارضة الى أن يرحل من العراق عام ١٩٢٤ تحت هذا الضغط والنقد المتواليين حتى قال :

سأرحل عن بغـداد رحلة عائف فقد طـال في دار الهوان قعودي

ومع ذلك فان الشاعر لم يفقد في يوم من الايام ثقته بالشـــباب والمناصرين لافكاره التي تهدف الى خدمة المجتمع العربي فكاد يردد ذلك دائما :

صـف الحقيقـة للشبان ياقلمي فكل ظني ان الوقت قد حانا[٢٨]

وقـــال :

ولولا شـباب أيدوني بنصرهـم لماكان للكسر الذي هاضني جبر

د ـ السـبب الفني :

كان الزهاوي بعد ١٩٢٠ قد قضى أغلب حياته في بغداد ما عدا رحلته التي أشرنا اليها أول الفصل • وكان يقضي أكثر أوقاته في مقهى يعرف باسمه وهناك كان يلتقي به محبوه ومريدوه وفيها يسمع ما يقال عنه ويقول ما يظن ويعتقد في الآخرين • تراه جالسا وهو شيخ في الستين أو أكثر من عمره بشعر طويل أبيض وبلحية طويلة غير مشذبة وقد وضع على عينيه نظارتين باطار ذهبي • وفي مقهى لا يبعد عنه كثيرا كان يجلس فيه الرصافي ويعقد هناك مجلسه وله أيضا محبوه ومريدوه • وكان الصراع الادبي قد قام حول أنصار الرصافي وأنصار الزهاوي كل يهاجم الأخر في جودة شعر صاحبه وتفوقه ثم كانت هنـــاك خصومة بين الزهاوي من جهة وبين أنصار شوقي في العراق وقد اضطر الزهاوي لاصدار

---

(٢٧) نفس المصدر ص ٣١١ •

(٢٨) نفس المصدر ص ٢٧٩

مجلة للدفاع عن آرائه وصدر منها عدة أعداد ثم اختفت عن الوجود بعد خمسة أسابيع من صدورها(٢٩) .

وفي هذه الخصومة العنيفة التي تركت أكبر أثر في نفس الشاعر نوقشت عدة أشياء مثل :

ما هو الشعر ؟ ما هو محتواه ؟ ما هو الشعر الجديد ؟ ما هي القصيدة ؟ ما هي القافية ؟ ما قيمة شعر الزهاوي ؟ هل الزهاوي شاعر مجيد ؟

ان أهم ما يهاجم الشاعر منه هو ان الشاعر في كثير من شعره لا يصدر عن روح شاعر بقدر ما يصدر عن روح عالم في الطبيعة والفلك أو الفلسفة ومن هنا هاجمه العقاد وغيره .

فهناك نماذج شعرية كثيرة في أدبه لا تقرب من الشعر أبدا . فهي أشبه بمنظومات العلوم كالنحو أو الفقه فنماذجه هذه منظومات في الفلك والشمس والقمر والنجوم السيّارة . فهو لا ينسى أحيانا حتى في غزله أو رثائه أو شعره الوطني أن يمس الجانب العلمي وان يترك منه شيئا في شعره وهذه نماذج منه . قال في دوران الارض حول الشمس :

والارض بنت الشمس تـر ... ضـع من حرارتهـا وتغـذا
وتـدور في أطـرافهـا ... مشـدودة بالجـذب شـدا
فتطـوف مثـل فراشـة ... لاقت بجنـح الليـل وقـدا
ويدور محورهـا توجـه ... نحـو نور الشمس خـدا
لولا دليـل الجـذب مـا ... ملكت بهذا السعي رشـدا
ولأبعـدت عـن أمهـا ... فمضت ومـا ألفت مـردا

وقال في تحول المادة من صفة لاخرى ونظم القول الشائع .. « المادة لا تفنى ولا تستحدث . » :

يبيد ، نعم يبيـد المرء لـكن ... عنـاصره تدوم ولا تبيـد
يدور الشيء من صفة لاخرى ... ولـكن منه لا يفنى الوجود

(٢٩) اسمها الاصابة صدرت فى ايلول عام ١٩٢٦ واختفت بعد خمسة اعداد .

وقال في نظرية (الدفع) التي سوف نشرحها بعد ذلك :

لا يجذب الجسم جسما ... من نفسه فيسير
بل انما يدفع الجسم ... في المثير الاثير

وقال عن دوران الشمس :

ليست الشمس من الشرق ... الى الغرب تسير
انما الارض من الغرب ... الى الشرق تدور

ان هذه النماذج من النظم تقلل في الواقع من قيمة القصائد التي تحويها ويجعل طعن المعارضة في محله أحيانا . هذا اذا عرفنا ان القارىء يقرأ الشعر لا لأجل أن يتعلم منه الحقائق العلمية والفلكية والجغرافية .

ولكن يجب أن نقول أيضا ان هذه النماذج قليلة بالنسبة لقصائد الزهاوي وأشعاره الكثيرة فلا يوجد أي خطر اذن من فناء كل شعر الزهاوي . فان كثيرا من شعره جيد يتمكن أن يقف للمتعة والخلود دون شك . هذا مما يضعف ويقلل قيمة هجوم المعارضة في طعن المعارضين على كل شعر الشاعر بسبب الجزء القليل ومن المآخذ الواردة عليه انه نظم كثيرا وأسرف في النظم وقيل انه يتمكن أن ينظم في الليلة الواحدة مائة الى مائتي بيت من الشعر واتهم أيضا بأنه يحب التفخيم والاكبار فقد قرأنا في مكان ما بأنه يحب أن يخاطب بالشاعر العظيم والفيلسوف الكبير وما أشبه . وقيل ان صحف القاهرة كانت لا تدفع ثمنا لما ينشر فيها أكثر من اللقب الكبير الذي يضعه أصحاب هذه الصحف أمام اسمه ولكن هل يجوز لنا هذا استصغار شأن الشاعر والتقليل من قيمته ؟

لا شك انه كان يرى من نفسه شاعرا أحسن من الرصافي وان لم يكن يجرؤ على ذكر ذلك في شعره خوفا من تهجم الرصافي عليه ولكن هذا ما يذكره عنه من عاصروه .

واضطر الزهاوي للدفاع عن نفسه الى شرح رأيه في الشعر الجيد كيف يجب أن يكون واضطر الزهاوي أن يظهر قيمته الفنية لخصومه فشرح قيمة شعره وقيمة ما أتى به من جديد .

وسوف نضطر هنا الى شرح رأي الشاعر في الشعر الجيد . قال في مقدمة ديوانه المسمى (ديوان الزهاوي) ما يلي :

« الشعر ما ينظمه الشاعر عن احساس يجيش في نفسه بأوزان موسيقية فيهز بها المسامع .... ولا أرى للشعر قواعد بل هو فوق القواعد .. وأنزع أن أمشي بشعري في سبيل الحياة الطبيعية متجنبا المبالغات وكل ما ليس حقيقيا .. معتقدا ان الطبيعة أولى بالتقليد .. وقد جردته ما استطعت من الصناعات اللفظية والخيالات الباطلة وحرصت على أن يكون منطبقا على القواعد خلوا من الاغراق ماشيا مع العصر ولا أرى مانعا من تغير القافية بعد كل بضعة أبيات من القصيدة عند الانتقال من فصل الى آخر .. وأجيز للشاعر أن ينظم على أي وزن شاء سواء كان من أوزان الخليل أو غيرها .. الجديد هو أحسن ما تنزع اليـــه النفس الوثابة .. ولا أريد بالتجديد أن يقلد الشاعر العربي شعراء الغرب في شعورهم فان لكل أمة شعورا خاصا بها لا تحس به أمة أخرى كالموسيقى ولا أقول بأن يجمد الشاعر العربي على ما هو عليه الشعر بل الاحجى أن يترقى شعر كل أمة في سبيله .. ولا يسوغ للشاعر مخالفة قواعد اللغة فان الاعراب دليل المعاني كما لا يخالف الشاعر الغربي لغته وللشاعر الفحل أن يولّد في اللغة اذا مست الحاجة كلمات لم يأت بها من جاء قبله فتغنى بذلك اللغة .. أما شاعر الاجيال فهـــذا لا يموت شعره لانه يبنيه على الحقائق الخالدة ومثل هـذا قليـل . » ثم قال في مقدمة اللباب يصف المجددين :

« هم الذين فضلوا ما جمع الى حسن الالفاظ ومتانة التركيب شعورا عصريا يوائم ثقافة هذا العصر وأبنائه المؤمنين بتطوره وهؤلاء هم في الحقيقة المجددون .

... والجديد من الشعر هو ما كان مشبعا بالشعور العصري وكان لذلك الشعور تأثير في شعور الآخرين .. كأنه الكهرباء وكانت ألفاظه بمثابة الاسلاك الموصلة لذلك الكهرباء مستوفية لجمال اللغة وموسيقى الوزن ســـواء كان من أوزان الخليل أو غيرها .. وأحسن الشعر في نظري ما استند الى الحقائق أكثر من العواطف والخيال البعيدين عنها فكانت حصة العقل فيه أكثر من حصتهمـا

وللشاعر أن يجمع في بعض قصيدة أكثر من مطلب بشرط أن يكون بين مطالبها صلة تربط حلقاتها المتعددة وأحسب إن هذا أقرب الى طبيعة التفكير أو الاحساس فانهما لا يأتيان الا في صورة أمواج هي فورات النفس أو ثوراتها يستقل كل منهما عن الاخرى ... »

أما في شعره فقد ترك لنا الكثير من آرائه في الشعر والشعراء متناثرة في الدواوين هنا وهناك ولا بأس ان نمر على بعض هذه الآراء .

يرى الزهاوي ان الشعر يخاطب العاطفة ولا يخاطب العقل :ـ

لا تسألن عن الشعر العقل ان رمت خبرا
بل اسأل القلب عنه فالقلب بالشعر أدرى[٣١]

فهو هنا يناقض ما قاله قبل سطور في مقدمة اللباب ـ وقال :

لم يقرض الشعر يوما في حقيقته الا الاولى نظموه مثلما شعروا[٣٢]

ويمتدح الشاعر الذي يجيد الوصف قائلا :

قد يجعل الوصف غيب الشيء عنك بمشهد
تكاد تلمس ما يصوره لعينيك باليد[٣٣]

وان الشعر عند الزهاوي ذو هدف اجتماعي :

والشعر اكبر موقظ والشعر مقصده مجيد[٣٤]

وقال :

الشعر ينهض بالشعور الى العلى فيما يولده من استعداد[٣٥]

---

(٣١) رباعيات الزهاوي ص ٦٥ .
(٣٢) نفس المصدر ص ٧٢ .
(٣٣) نفس المصدر ص ٧٣ .
(٣٤) ديوان الزهاوي ص ٦٦ .
(٣٥) نفس المصدر ص ٢٤٣ .

وقـــال :

يمارس شعري اليوم اصلاح أمـة فلله شعري اليوم ماذا يمارس[٣٦]

وقيمة الشعر انما هي في المعاني لا الالفاظ .

قـــال :

ومـا الشعر الا بالمعـــاني التي له اذا كبر المعنى به كبر الشعر[٣٧]

ولا يحب الزهاوي « الهجاء » في الشعر ولا (المبالغة) فيه ولا يحب « البيع » للفـــــن :

لا يعذب الـكذب فيـــه ولا يجـــوز الخـــداع

اما القـــذاع فـــلا حبـــــذا هنـــاك القـــذاع

ولم أبع قـــط شـعري فالشـــعر ليس يبـــاع

وقـــال :

أيهـــا الشعر أنت لست متاعـــا يشترى أو يباع في الاسواق[٣٩]

ويرى الزهاوي ان الشاعر المجيد لا يخلقه « التقليد » .

قـــال :

وليس المجيـــد المستقل مقـــلدا ولا ذا مغـالاة يبـالغ في الامـــر

وأخـيرا فان ميزان الشعر هو ليس كل شيء وانمـــا هو المعنى المؤثر في اللفظ الرقيق :

لعمرك ليس الشعر شيئا هو الوزن ولا هو لفظ ضاق عن مهمة الذهن

بل الشعر معنى رائق يوقظ الهوى ولفظ رقيـق مثلمـــا يطلب الفن

اذا كان معنى الشعر ينظمـه الفتى جميلا ورق اللفظ ثم له الحسن[٤٠]

---

(٣٦) نفس المصدر ص ٢٤٥ .
(٣٧) ديوان الزهاوي ص ٢٤٩ .
(٣٨) نفس المصدر ص ٢٥٠ .
(٣٩) نفس المصدر ص ٢٥٧ .
(٤٠) نفس المصدر ص ٢٥٥ .

وله آراء في الشعر والشعراء تجدها في (ديوان الزهاوي) في قسم « الشعر والشعراء » (ص ٢٣٩ – ٢٦١) وله كذلك آراء متناثرة في الرباعيات واللباب وان هذه الافكار الناضجة الفذة في بابها لجدتها على العقلية العراقية لم يفهمها العراقيون المعاصرون له من ذوي الادمغة الصلبة والرقاب الغليظة ولم يشاءوا أن يفهموا الشاعر وما جاء به من جديد وان يحترموه لاجل ذلك .

أما رأيه في نفسه من حيث الشاعرية فلم يقله بصراحة أول الامر ولم يترك لنا رأيا واضحا حين نشر ديوانه الاول (الكلم المنظوم) ففيه قال :

فانظمه ولا أدري أ أني مسيء حين انظم أم مجيد[٤١]

ولكن في الرباعيات يحدد موقفه من شعره فهو لم يكن يريد أن يبيع شعره :-

ما بعت للناس شعري فالشعر ليس يباع[٤٢]

ثم أدرك ما قام به من تجديد في الشعر الحديث فقال :-

لم يكن مبدأ البساطة في الشعر معلنا
أنا من بعد أعصر أنا أعلنته أنا[٤٣]

وقال في (ديوان الزهاوي) :

« ان في ابتكارا »[٤٤] ويقول « اني لا أحمد التكرارا »

ويخاطب شعره : « وأنت تعيش بعد دثوري »[٤٥]

وهو يعرف ان بعض هذا الشعر جيد وبعض هذا الشعر رديء . قال :-

طورا أسف وطورا أعلو كتحليق نسر[٤٦]

---

(٤١) الكلم المنظوم ص ١٠٩ .
(٤٢) رباعيات الزهاوي ص ٦٤ .
(٤٣) نفس المصدر ص ٦٦ .
(٤٤) ديوان الزهاوي ص ٢٤١ .
(٤٥) نفس المصدر ص ٢٤٤ .
(٤٦) نفس المصدر ص ٢٤٧ .

ويصف حاله في قول الشعر :ـ

الشعر لست أقوله ٭ الا كما أنا أشعر
ما ان أقلد من مضت قبلي عليه الاعصر[٤٧]

٣ ـ افكار الشاعر واراؤه الاجتماعية والعلمية في آثاره المختلفة :

أ ـ الآراء الاجتماعية :ـ

ان أفكار الزهاوي الانسانية نبعت من ميله الى حب العدل والمساواة .. فهو نظر الى المجتمع العربي تحت حكم الاتراك فرأى ان العرب لم ينالوا من أسيادهم الاتراك شيئا وهم أهل الارض وهم أهل الثروة فقال :

انا بظاهر ارضنا قسمان مغصوب وغاصب
الظلم ضيق في وجو ٭ رجائنا طرق المكاسب
نسعى لنفع الآخرين من الذين لهم مناصب
ونعيش في حال التعاسـ ـة بالاماني الكواذب[٤٨]

كان ذلك قبل الثورة الاشتراكية في روسيا بسنين طويلة جدا وكان متأثرا في هذه النظرة الانسانية بروح الثورة الفرنسية وأفكارها وكانت ذات تأثير على المجتمعين العربي والتركي في القرن التاسع عشر الا أن الزهاوي سرعان ما انتبه الى الحركة العمالية الجديدة في روسيا وتوعد وهدد وطلب المساواة وهو يكون بذلك قد سبق تأسيس الاحزاب الاشتراكية والشيوعية في العراق بسنين ٭ ها هو يقول عام ١٩٢٤ في ديوان الزهاوي :

ماذا الذي احفظ العمال فاعتصبوا انني لاسمع عن بعد لهم لغطا[٤٩]

وقال :

استتبت حكومة للصعاليك معا تحب راية حمراء
ولقد كانت الحكومة في الاقوام قبلا حكومة الزعماء

---

(٤٧) نفس المصدر ص ٢٦١ ٭
(٤٨) الكلم المنظوم ص ٥٣ ـ ٥٤ (١٣٢٢هـ) ٭
(٤٩) ديوان الزهاوي ص ٦٤ ٭

وهو يميل الى القول بأن الانسانية واحدة مهما تعددت الاديان والالوان والأجناس قال :

بل كلنـــا بشـرا أبوهـم من أبي عند الرجوع وكلهم اخواني(٥٠)

ان أفكار الزهاوي الاشتراكية اشتدت بعد أن خابت ظنون الزهاوي في نظام الحكم الجديد الذي قام في العراق وحين شعر انه لم يكافأ على خدماته للامة العربية فهذا هو يقول :

« أما رباعياتي .. فقد نظمت الكثير منها في أول سنة من تبوء جلالة الملك عرش العراق أيام نكبتي في شيخوختي أيام أشكو الحيـــاة والعوز والاوجاع المبرحة . أيام خابت آمالي في الذين كنت آمل باطلا لنفسي في عهده العز وفي ظله الراحة والرفاهية وأتوقع لاوطاني الاستقلال والتقدم فما نلت ما أملته لنفسي ولا شاهدت ما توقعته لاوطاني أيام حرمت من خير بلادي التي خدمتها بصدق أكثر من ثلث عصر في وقت أنا في أشد الحاجة الى ذلك الخير ...

قد أرادوا أن يسيل الدمع من عيني فســالا
ولقــد ينبت في تاريخهـــم دمعي ســـؤالا

... ولقد كان ما لحقني من الاذى وحرمان من الوظائف من الدواعي لنظم هذه الرباعيات وانك لتسمع فيها شكاتي صارخة وتقرأ دموعي مكتوبة وترى بؤسي وشقائي متمثلين . وما ليلى التي أغني باسمها في كثير من رباعياتي سوى وطني العزيز الذي أحببته فوق كل حب وحاربت من أجله الاستبداد طوال تلك السنين .. » وقال :ـ

« وكررت بعض المضامين في أكثر من رباعية حرصا مني وزيادة ايقاظ للشعب الذي غنيت له أو رغبة في صوغه في قالب أحسن . » ولنقرأ بعض هذه الرباعيات الثورية التي استمد روحها مما قرأه عن الاشتراكيـة هادفا الى اثارة الشعب ضد السلطان :ـ

---

(٥٠) نفس المصدر ص ١٥٢ .

جمعوا من ساكني الاكواخ أمـــوالا دثـــورا
وأتوا في جانب الاكـواخ يبنـــون القصـــورا

ويقـــول :ـ

أيهـــا الشـــبعان ما قولك في الناس الجيـــاع
أتـــــرى ان لهـــــم في أرضهم حق المساعي

وهذا هو يهدد السلطة بالشعب ويوعدهم به :ـ

اخـــدموا الشعب بصـدق واذكـــروه باحترام
لا تخـونوا الشعب فالشعب عـــزيز ذو انتقـــام

ويقول : متهما السلطة والحاكمين بالخوف :

تخشـــى بطـــون شـــباع من البطون الخمـاص
ســـيطلبون مناصـــــا ولات حـين منـاص

ويضرب على نفس الوتر في ديوانه فيقول :

أترى للبطـــون التي قـــد شبعت علما بالبطون الغراث

وها هو يهدد ثانية الذين غصبوا الحقوق :ـ

ان الألى غصبـــوا الحقـــو ق أمامهم يوم عصيب
ولقـــد أثـــاروا فتنـــة كالنار تتلف ما تصيب

وتتكرر الافكار في (اللباب) :

أثقل الظالمون قومـا ضعـافا وعسى ألا يثقـل الظـــالمونا
ولقد نام القوم عن كل حق وعسى أن يستيقظ النائمونا

واضطرت الظروف الاجتماعية القاسية والفروق الطبقية الشاعر ان يدلي بآرائه الاشتراكية في كتابه « المجمل مما أرى » المطبوع في القاهرة ١٩٢٤ وفيه تنبأ أيضا بالجمهورية الاشتراكية المثالية والتي يرى انها سوف تتحقق قال :ـ

« ليس لي علم مفصل بالاشتراكية البلشفية ولا بغيرهـــا من الاشتراكيات المعتدلة غير اني أسمع ان البلشفة فيها غلو وانها تبطل وراثة المال وتقتل الرغبة في العمل والتبريز على الاقران في معترك الحياة ... ويدعى المناصرون ان أكبر الاسباب للجنايات والتذمر والاضطرابات بين البشر هو الحاجة فاذا سدت هذه

زالت الجنايات والاضطرابات وهدأت النفوس .... وقد أحببت أن أخوض مع الخائضين في هذا المطلب الحيوي فأكتب ما يبدو لي في هذه العجالة فان المسألة الاجتماعية ذات شأن . أرى المعوزين أكثر عددا من الموسرين وقد توحد الحاجة كلمتهم في البلاد فتكون منهم قوة هائلة يحاربون بها المستأثرين وقد بدأ هـذا التوحيد يتم في كل بلد على حدة وتعدى في بعضه الى غيره . فاذا شمل أهـل البلاد كافة استطاعوا أن يقضوا على النظام الحاضر بايعاز زعمائهم اليهم ان يضربوا عن الاعمال أو السلوك بهم طريقا أقرب الى نيل المآرب وهذا لن يتم فان القوة في يد القسم الراقي وهم أهل المعامل والعلماء ورجال الحكومة . والقوة تغلب العدد وسوف يخضع المعوزون لسلطانهم كما خضع الحيوان للبشر لانه أرقى منه ... وأخال ان الحرب المنتظرة بين الموسرين والمعسرين وأصحاب المعامل والعمال تشب نارها يوم يكتشف العلم طريقة الانتفـاع من القوى الـكامنة في الجواهر الفردة للمادة فعند ذلك يستطيع أصحاب المعامل أن يشغلوا معاملهم بآلات صغيرة وتعب قليل فيستغنوا عن العمال الكثيرين الذين يقاسمونهم النفع وحينئـذ يعض هؤلاء الجوع فيثورون في وجوههم ويتحد العمال في كل بلد ويتخـذ أصحاب المعامل وتقع الواقعة والعاقبة للمرتقين .... وأكثر حروب المستقبل عامة كأن تنقسم الامم قسمين يتحاربان لاجل السيادة وما الغلبة الا للقسم الذي هو أقوى بشرط مساعدة الظروف له فيقهر هذا القسم عدوه ثم يقع الخصام بين أمم القسم الواحد وتغلب القوية منها حليفتها في الماضي الى أن تسيطر أمة واحدة على الارض كلها فتنحصر عندها السيادة العامة ..

اني لأتصور للمستقبل جمهورية تخالف جمهوريات عصرنا وما تقدمهـا فيها السعادة للبشر كافة . وأقول باحتمال أن يجيء يوم يطبق عليها الانسان فيها اجتماعه . وهذه الجمهورية مبنية على المساواة بين الناس في الحاجيات مع بقاء التفاضل في الحياة والمنزلة .. وتقسم الافراد بحسب استعدادها الى أقسام .. وتعين لكل وظيفة في قسمه فلا يتعداها الا اذا أثبتت اهليته لما فوق ذلك القسم وتؤلف لكل قسم مدارس وتلغى قيمة النقود وتنزع الاملاك من يد ممتلكيهـا وتبطل وراثة المال وتطعم أفراد كل قسم في مقابلة العمل وتؤلف لجانا لاحضار

مواد الطعام وآخر لتوزيع ما يحتاج اليه أفراد هذه الجمهورية من الطعام والشراب والثياب على قدر حاجتهم ولجانا أخر لبقية الحاجات فحينئذ تزول الجنايات التي تسببها الحاجة والجوع ويسعد الناس كافة في ظلها ولا يبقى لاحد تذمر من الحكومة .. وفي هذه الجمهورية يمتاز القسم الراقي عن بقية الاقسام في الاعتبار والمنزلة والجاه وهذا الامتياز كاف لتوليد الرغبة في الاختراع لمن لهم الاستعداد .. ولعل بعض الاشتراكيين قد سبقني وأنا لا أعلم لقلة ما تلوته عن الاشتراكية »[٥١] وهو اذا كان يضع أفكاره الجدية نثرا فانه في قصائده يرسم صورا شعرية بعض ما فيها أشبه بالروايات العلمية ويتنبأ بحالة الانسان في المستقبل بعد ألف عام فيقول في هذه القطعة المتفائلة :ـ

كأني من قبري انبعثت وقد مضى ... عليّ من الاعوام في جوفه ألف

فيرى انسان المستقبل كالآتي :ـ

لكل امرىء منهم جناح كطوله ... فينشره اما أراد ويطويه

تحركه فيما اذا شاء قوة ... قد ادخروها من حطام الجواهر

وهم قادرون على العجائب وهذه احداها :ـ

وفي ان يحوزوا قدرة ان يحولوا ... متى رغبوا الاجساد منهم الى قوى

فتمضي بهم أنى أرادوا بسرعة ... وترجع أجسادا كما هي قد كانت

وهم أناس اشتراكيون :ـ

وتربية الاطفال راجعة الى ... حكومتهم في شرعها فهي الأم

وقد قسموا الارزاق بالعدل بينهم ... ولا أحد يشكو هنالك من فقر

حكومتهم شبه اشتراكية فما ... تنعم أفراد وتشقى جماعات[٥٢]

وبعد عام ١٩٣٠ يبدو ان الزهاوي قد انضوى فعلا الى الجماعة المثقفة في البلد التي تضم مجموعة من الشباب المثقفين الذين عادوا من الغرب وبعض أبناء البلد الاحرار من الذين أخذوا يعارضون الحكومة التي احتكرت السلطة بمعاونة

---

(٥١) لخص من (المجمل مما ارى) من الصفحات التي بين ٥٢ و ٦٩ .

(٥٢) ديوان اللباب ـ بغداد ١٩٢٨ ص ٢٨٠ .

الانكليز فالحكومة كانت تمثل ـ آنذاك ـ مدرسة قديمة على رأسها سياسيون قد أكل الدهر عليهم وشرب وتحتج الحكومة لذلك بان الديموقراطية لا تصلح للبلد ولا توجد فيه العناصر الصالحة المتفهمة للحكم الديمقراطي فالشيوخ لا يصلحون للحكم وان الموظفين في المدن لم يكونوا يشعرون بشعور الجمهور وان الطبقة المتوسطة لا زالت ضعيفة وكان الخلق العام للسياسيين في هذه الفترة هو ـ انعدام المسؤولية والانانية والتعجل في الامور .

كانت الحكومة تتكون قبل عام ١٩٣٢ (في فترة الانتداب) وبعده من مجموعة من أبناء العوائل السنية الغنية من رجال المدن والريف ومن جماعة من أبناء العوائل المتنفذة في العصر التركي وكذلك من مجموعة صغيرة من أبناء عوائل الشيعة الاغنياء وكانت الخصومة في الغالب بين هاتين المجموعتين المختلفتين مذهبيا قائمة على المصالح الشخصية تضحي في سبيلها راحة الشعب باثارته في سبيل تحقيق مآرب جماعة معينة في وقت معين .

وعلى هذا فان الجماعة المثقفة الحساسة التي تمثلت في جماعة الاهالي كانت تكوّن البذرة الاولى للاحساس الاجتماعي والدعوة الى العدل والاشتراكية وكانت تظهر من هذه المجموعة ميول متطرفة أو شيوعية أحيانا . ولم تجرأ هذه الجماعة على توحيد نفسها كحزب وانما دعت في الغالب الى اصلاحات اجتماعية وتوزيع الثروة وتحسين حالة العمال وهاجمت حقوق الطبقة الرأسمالية والاقطاعية وان أهم شخصية في هذه الجماعة هو المرحوم جعفر أبو التمن (ت ١٩٤٦) وكامل الچادرچي وبعض المثقفين الآخرين ولابد أن نشير هنا ان الاستعمار البريطاني كان دائما يعادي هذه الحركة ويقف دائما في وجه أية دعوة للمساواة الاجتماعية ولو كانت نظرية فقد أصدرت الحكومة عام ١٩٣٦ قانونا يقضي بالغاء الالقاب التركية مثل « أفندي وبك وباشا » واستعيض عن ذلك بلقب « سيد » ويبدو أن ذلك كان بتحريض من الملك غازي آنذاك ومن بعض المثقفين الا ان الطبقة المتميزة والاوربيين تجاهلوا ذلك مما حدى بالمؤرخ لونكرك أن يقول هاشماً باشاً .

« ان هذا القانون تجاهلـه الجمهور والاوربيـون والوزراء وبعض ذوي السلطة »[٥٣] .

ففي هذه الفترة (١٩٣٥) نرى الاشتراكية عند الزهاوي واضحة ومما لا شك فيه ان تأثير هذه المجموعة الناهضة كان كبيرا عليه . فهذا هو يقول من قصيدة طويلة :ـ

ومن لي بعـام لا يشـابه غـيره ... أرى فيـه أظفـار البغـاة تقلم
وابخـل أرض بالرجولة بقعـة ... يضـام الفتى فيهـا ولا يتبـرم
اذا أنت لم تألم من الضغط غاضبا ... فمن أي شـيء في حيـاتك تألم
أدير عيوني في الوجوه فـلا أرى ... سوى الذل مقروءا ولا أتوسـم
من النـاس آلاف يعضهـم الطوى ... وفي كـل ألف واحـد يتنعـم
اذا عجز المكروب عن شرح ما به ... فعـلّ دموع العـين عنـه تترجم
أمن قام يشـكو بثـه فهو مزعج ... ومن قال يبغي حقـه فهـو مجرم
بني وطني لا تسكتوا عن حقوقكم ... أليس لـكم منـكم فـم يتكلـم
لكم ثروة في الارض أتعابها لـكم ... وأرباحهـا للغرب نهب مقسـم
لآلام قومـي الصيـد نفس تألمت ... لك الويل يا نفسي التي تتألم[٥٤]

كان الزهاوي من ذوي المزاج الهادىء المسالم وكان لا يحب الاشتراك في الثورات فهو لم يشترك في الثورة العراقية ولم يحب الحرب بل دعا للسلم وقاوم دعاة الحرب منذ فترة مبكرة قال :ـ

دعاني لنصـرتهم منهمـا ... فريق هـم الطرف الاظـلم
فقلت لهم ان هـذا الخصا ... م لي ان ولجت به مؤلـم
دعوني يا قـوم في راحتـي ... فمـا أنا منكم ولا منهم[٥٥]

وهذا هو يشرح فلسفته :

وانـي امرؤ يبني أسـاس دفاعه ... على السلم ان السلم خير من الحرب[٥٦]

---

(53) Longrigg: Iraq 1900—1950, P. 246.

(٥٤) الثمالة ص ١١ (١٩٣٥) .
(٥٥) ديوان الزهاوي ص ١٠٧ .
(٥٦) الكلم المنظوم ص ١٧٢ .

وها هو ينظر متفائلا في انسان المستقبل :

سيهذب المستقبل الانسانا حتى يكون أبرَّ مما كانا
حتى يبدل من خصومته رضا ومن القساوة رأفة وحنانا
وحكومة البلدان جمهورية ما أن تطيع لغيرها سلطانا(٥٧)

ونجد نفس الروح في ديوان الزهاوي (١٩٢٤) فهو يقول ذامّاً للحرب :

للحرب ويلات بنسبتها هنالك تكبر
للحرب كسر في عظام رجالها لا يجبر(٥٨)

ويصف الحرب ثانية :

في كل أرض وصقع مدافع ثائرات
يقتلن كل فتى قد تفيد منه الحياة
وليس يبقين الا أراملا ويتامى(٥٩)

وهو أحيانا يشك في قدرة الانسان على ايجاد السلم فوق هذه الارض المضطربة فتراه يتساءل :

قل متى تنتفي الحروب الدوامي ويشيع السلام بين العباد(٦٠)

---

(٥٧) علق الاستاذ ابراهيم الوائلي على هذا البيت ما يلي :
« سيذهب المستقبل .. منشورة في الكلم المنظوم المطبوع قبل الحرب الاولى وفي الديوان ص ٢٦٥ ولكنها منشورة ايضا في جريدة العراق العدد ٣٤٧ بتاريخ ١٩ تموز ١٩٢١ السنة الثانية وفيها تغيير وتبديل واضافة ومدح لفيصل قبل أن يكون ملكا ومناسبتها احتفال اقامه الحاخام في داره لفيصل فخطب فيه الزهاوي والقى هذه القصيدة ودعا فيها الى الاخوة بين الديانات الثلاث وختمها بقوله :

ان العراق بفيصل وبعرشه سيعود مزدهرا كما قد كانا

وجاء بكلمة (دستورية) بدل جمهورية و « الامصار » بدل بلدان !!

(٥٨) ديوان الزهاوي ص ١١٢ .
(٥٩) نفس المصدر ص ١١٤ .
(٦٠) ديوان الزهاوي ص ٢٦٤ .

ويصف هول الحرب في ديوان الشمالة (١٩٣٩) :

كل يوم للحرب تشـــهد ويـلا ان ويلات الحـــرب لا تتنـــاهى
لو جمعت الدماء كانت من الكثرة غـــدرانا موجهـــا يغشـــاها
أمهـــات يعولن من ألـم الثكـل وآبـــاء موتت ابناهـــا[٦١]

والزهاوي يجل الفرد ويحترمه وتهم المجتمع والجماعة دائما فهـذا هو يعزو الحرب وسببها للمجتمعات وليس للافراد ويقول :

الحـــرب ذنب الاجتمـــا ع وانـــه لا يغفـــــر
تضنـــي الذي هو ظـــافر وتـذل من لا يظفـــر[٦٢]

وقد تأثر في موقفه من الفرد والمجتمع بآراء المربي الفرنسي جوســـتاف لوبون فهو قد أشار الى ذلك في مقدمة كتابه الرباعيات :

« وقد أخذت طرفا من الدساتير الاجتماعية لجستاف لوبون متصرفا فيه تصرفا يقربه من النظم وعدد هذا لا يتجـاوز الثلاثين رباعيـــا وهو متفرق في الاقســام ٠ »

وقد قاسى الزهاوي كثيرا من الجماعة في معارضته ومهاجمته حين أعلن أفكاره في تحرير المرأة ونشأة الانسان من قرد الخ ٠٠ ولذلك فان موقفه كان ضد الجماعة دائما ٠٠ فهنا يعلن الزهاوي الحقيقة العلمية بأن شخصية الفرد لا تبدو الا حينما يكون بعيدا عن المجتمع قال :

لكل امريء شخصية هي عنـــدما يكون عن الاحزاب منفردا تبدو[٦٣]

ويتهم الجماعة بأنها لا تفكر وليس لها نظام :

مـا للجمـــاعة من رأي تجيء به اصـــابه فهي كالاطفـــال تفتكر
ان الجمـاعة جنـــد لا نظـــام له يقودها حيث ما شاء الهوى نفر[٦٤]

---

(٦١) الشمالة ص ٤٣ (١٩٣٥) ٠
(٦٢) اللباب ص ٢١ ٠
(٦٣) رباعيات الزهاوي ص ١٣٠ ٠

ويحذر من ثورة الجماعة :

ولا ترهبن الفرد في حال سخطه عليك وفي سخط الجماعة فارهب
تلوح لعينيُّ الجماعة دائما كشخص قليل العقل أعمى التعصب

ويتهم الجماعة بأنها لا تفكر حينما تثور :

واذا ثارت الجماعة يوما فهي قد لا تدري لماذا تثور

وهو من دعاة (الثورة) للحفاظ على النفس هذا مع رغبته في السلم فهو في دعوته للسلم لا يدعو الى أن يكون المجتمع ضعيفا متكاسلا لان :

النواميس قضت ان لا يعيش الضعفاء
ان من كان ضعيفا أكلته الاقوياء ! !

ب ـ الآراء العلمية :

حينما كنا في مقام الاستعراض لآراء الزهاوي من جميع النواحي فلا بأس أن نمر على آراء الزهاوي العلمية مرا سريعا حتى يتفهم القارىء قيمة هذه الافكار • يجب أن نقول ان الزهاوي شاعرا ومفكرا اجتماعيا يفلسف أفكاره أحسن منه عالما في الفلك أو البصر أو الطبيعة أو غيرها ولكنه دفعته حماسته وهو شاب يكتب بعض الرسائل العلمية وآخر ما نشره في هذا الباب عام ١٩٢٤ واعتقد انه بعد هذه السنة كان قد وصل الى المرحلة التي قرر فيها الانصراف عن العلوم الى الادب والابداع فيه وقد أبدع في الادب حقا •

كان الزهاوي معجبا بنفسه وبآرائه فهو يقول : « ان آرائي التي انفردت بها كثيرة أورد هنا بالاجمال ما أعده المهم منها » وهو قد وصف بعض نظرياته بأنها غير مسبوقة بالبحث والزهاوي كان ولا شك من أحسن العقليات المثقفة علميا في العراق بصورة خاصة وفي الشرق الاوسط بصورة عامة فهو قد قرأ كثيرا أو تعرف الى أفكار انشتاين وداروين ورينان ونجزوجستاف لوبون ورذرفرد وفرانكين ودوفاي والمستر اوليفر لوج وكولي وتعرف على آراء باسكال وغاليلو وكوبرنيك وبكرل وهو يحدثك بسهولة ويسر عن أمواج هرتس

وتلغراف مركوني وأشعة أكس والراديوم وغيرهـا من البحوث والموضوعات فليس في ذلك غرابة اذا رأيناه يحاول أن يضع شيئا جديدا فهو لم يشعر بالنقص الذي شعر به معاصروه ازاء العقلية الاوربية أو العقلية الجامعية فهو يعتقـد ان المرء المثقف حتى بدون أن يذهب الى الجامعة لقادر أحيانا على أن يأتي بشيء مفيد أو جديد • ففي كتابه (الجاذبية وتعليلها) يشرح لنا الطريقة التي سارعليها :

« وقد مشيت في اثبات كثير من مطالبها على الخطة التي مشى عليها الغربيون ألا وهي النظر العاري عن الهوى والمراقبة والتطبيق على الحوادث والاختبـار بالذات والانتباه لكل ما يخص الموضوع » •

وهو يضع نظرية جديدة للجاذبية تتلخص فيما يلي :

« واني لاعدل عن الرأي القائل ان المادة تجذب المادة كما عدل غاليلو وكوبرنيك عن الرأي القائل ان الشمس تدور حول الارض فأقول بعكس ما يقول علماء العصر :

ان المادة تدفع المادة فقط وان الشمس تدفع الارض وسائر السيارات فتبعدها وان الارض تدفع القمر وسائر الاجسام فوقها • »

ويشرح هذا بقوله :

« والقول ان الارض تجذب المادة هو جمع للضدين فقد تحقق ان لدورانها على نفسها تدفع المادة فاذا كانت مع دفعها هذا تجذب كانت دافعة جاذبة في وقت معا وهل اجتماع الضدين الا هذا ؟! »

وان أبسط التجارب للكرات الممغطسة التي تدور حول نفسها مع جذبها ذرات الحديد يرد على الزهاوي وان صعود الانسان الى الفضاء في زمننا هـذا قد برهن على بطلان نظرية الزهاوي طبعا •

ومن آرائه المتناثرة في كتابه (المجمل مما أرى) يعرض للكون وللفضـاء فيقـول :

« وأعتقد ان الفضاء لا يتناهى تضمحل في طرف منه عوالم وتنشأ في طرف آخر عوالم أخر الى ما لا يتناهى من الزمان على سبيل الدور » وهو في شعره يعتقد ان الكون قديم وأزلي دائم فهو لا يحتاج الى ايجاد ولا خالق ويقول عن الفلك والارض ما يلي :

« وسيجيء يوم تكون الارض فيه شمسا وهي حينئذ بعيدة عن الشمس بعدا هائلا ويكون قمرها هذا مع ما سيلحق بها من حجارة في الجو سيارات لها .. هذا ما لا أرتاب فيه وان انكره العلماء بهذه الحقبة الراهنة . »

ويعرض رأيا سبق به علماء التلفزة وتكوين الصور في « الرؤيا » وهو ما يلي :

« لقد غلب على ظني بعد تجارب وامتحانات طويلة بسطتها في رسائل لي لم تنشر بعد ان الاجسام مؤلفة من دقائق مادية صغيرة كروية الشكل فهذه تنعكس عنها صور الشمس في النهار أو صور السراج في الليل وتنعكس عن هذه الصور صورة القرنية متعددة بتعدادها ومتلونة بألوانها وتدخل العين وتقع على الشبكية .. »

وله رأي في « الزمان والمكان » يقول فيه :

« نعم ! أقول ولا أرجع عن قولي : ان الزمان سكون ولا حركة يتخللها السكون سواء كانت بطيئة أو سريعة غير ان السريعة أقل سكونا من البطيئة وهذا السكون خاصة للمكان وهو الذي يقاوم الحركات فيحدث للمادة المتحركة توقفات في أثناء الحركة طويلة أو قصيرة تبعا لما للحركة من الشدة أو الضعف »
وله رأي في قدم الحياة على الارض هو أحسن بكثير من رأي علماء المسيحية والقسس الذين يقولون بأن الحياة نشأت على الارض قبل أقل من عشرة آلاف سنة وهو يقف أمام أي رأي علمي آخر .

« الحياة على الارض أقدم مما يقرره العلماء بل يلوح لي ان ما تعده جامدا من المادة فوق الارض هو حي في شكل بسيط جدا » .

ولا شك ان كثيرا من آرائه العلمية متأثرة الى حد بعيد بما قرأ من علوم الغرب من الصحف المعاصرة له والمجلات كالمقتطف والهلال والكتب المترجمة الى التركية في تلك الفترة •

٤ ـ التجديد في شعر الزهاوي :

أ ـ ان الزهاوي أول شاعر حد من شعر المدح والرثاء الى الحد الاقصى وأزال الهجاء الشخصي نهائيا من شعره وفي هذا قد تحدى كثيرا من شعراء الزمن المعاصر الذين فشلوا رغم التجديد والروح الحديثة في التخلي عن الهجاء الشخصي أو المدح الفردي للاطماع الدنيوية •

ان الخلاف بين النقاد في كون الزهاوي شاعرا خلاف لا نلقي اليه بالا ولا حاجة للوقوف عنده • فالزهاوي شاعر كما سبق أن قلنا في كتاب سابق وشاعر ممتاز ومن الطراز الاول فاق تعدد آفاقه كل شعراء الفترة الحديثة في العراق • ان لكل شاعر في الواقع شيئا يميزه عن غيره وشيئا جديدا يجيء به • فما هي مميزات شعر الزهاوي وما الذي جاء به الزهاوي من جديد ؟!

يتصف شعر الزهاوي بالبساطة والسهولة المتناهيتين وهو في الواقع أقرب الى روح العصر من أي شاعر آخر وانك لبساطته وسهولته تستغرب أحيانا اذ تجد الكلمة الغريبة الشاذة وقلما تجد مثل هذه الكلمة في قصائده العديدة الطويلة•

ب ـ انه أول من أدخل « الرمز » للفكرة في الشعر العربي بين شعراء الادب الحديث في العراق ولا أعني بالرمز للفكرة بما يعرف اليوم بالرمزية • بل هو فى الغالب كان قد جرد من كلمة « الحرية » والكلمات الاخرى مثل « العدالة » و « الوطن » صورة امرأة وبدأ يتغزل بهذه الصورة معلنا شوقه وتعلقه بها وهذا شيء جديد لم يسبقه اليه أحد ولم يقلده به أحد الى الآن ولنعرض الى بعض هذه الصور التي ظهرت مبكرة فيديوانه الاول المطبوع عام ١٩١١/١٣٢٧هـ في بيروت •

أكثر ما ناجى الزهاوي « العدالة الاجتماعية » فهو يلقبها بـ (سعدى) :

وعدتني قربا ولم تف وعدا ... بل أراها تزيد في البعد بعدا
وجد الوحش في المعاهد معدى ... بعد « سعدى » انالعدالة (سعدى)
ليت سعدى مقيمة في بلادي[٦٥]

ويلقبها بسلمى أيضا[٦٦] ويقول :

أبى القلب الا حب سلمى وانما ... يكاد الجوى يرديه لولا وعودها
وما تلك الا العدل فالعدل غادة ... بعيدة مهوى القرط باد نهودها[٦٧]

ويلقب العدل بـ (مي) أيضا :

متى تحضر نطب يا عدل الا ... وانا ان تغب عنا فلالا
وكم واعدتنا يا عدل وصلا ... رجوناه فلم ننل الوصالا
اذنب يا رعاك الله انا ... عشقنا منك يا (مي) الجمالا
وما الربع الذي اخبرك عنه ... سوى الوطن الذي ركناه مالا
وليس سوى العدالة ما هوينا ... « ومي » قد ذكرناها مثالا[٦٨]

ولقب العدالة بليلى بعد اعلان الدستور التركي عام ١٩٠٨ وقال :

خود «العدالة» يا قلبي السعيد وفت ... بوعدها وهي كل السؤل والحاج
أخال «ليلى» وليلى العدل قد رضيت ... عن المحبين بعد السخط والغضب[٦٩]

وبعد عام ١٩٢٤ اتخذها رمزا « للوطن » وقد صرح هو نفسه بذلك في كتاب الرباعيات وقال :

« وما ليلى التي أغني باسمها في كثير من رباعياتي سوى وطني العزيز الذي أحببته فوق كل حب وحاربت من أجله الاستبداد تلك السنين » ومن رباعياته في ليلاه قوله :

---

(٦٥) الكلم المنظوم ص ٣٠ .
(٦٦) نفس المصدر ص ٥٥ .
(٦٧) الكلم المنظوم ص ٣٤ .
(٦٨) نفس المصدر ص ٤٢ .
(٦٩) نفس المصدر ص ٨٤ ـ ٨٦ .

ليـــلى اذا مـــا أرادت تذيـــق حـــلو ومـــرا
فتعجـل الهجر وصـــلا وتجعـل الوصـــل هجرا

وقـــال :

اليـوم تصـــدر « ليـــلى » أمـــرا وفي الغـــد تلغـي
لا أنت تســـكت عن حـــا جـــة ولا هـــي تصغي[٧٠]

واستعمل اسم ليلى رمزا للحقيقة في ديوان الزهاوي[٧١] واللباب[٧٢] وذكر في اللباب أيضا والديوان الذي صدر عام ١٩٢٨ قال :

ولم تك ليـلى في قريض اجيـــده سوى وطن كل الذي فيه جيد[٧٣]

ج ـ ومن مميزات شعر الزهاوي وجديده قابليته على اعطاء صور جميلة في بيت أو بيتين من الشعر فقط وهذا ما ينقص بعض شعراء الفترة الحديثـــة وصوره تتراوح بين الجد والسخرية والواقع والخيال والتأمل والنقد والتغني بالوطن .

فهذا هو يفلسف مصير الانسان من قصيدة رثاء في ديوان « الكلم المنظوم » . وهذه بعض نماذجه الباهرة :

في نوعه الانسان يشـبه دوحـــة للريح بـين غصونهـــا اخفـــاق
والناس تســقط عنـد كل مهبـــة منها كمـــا تتســاقط الاوراق[٧٤]

ويقول في موضوع الموت أيضا :

ربمـــا في القبور تشـــبع نومـــا آنســـات عيونهـا ناعســـات[٧٥]

---

(٧٠) الرباعيات ص ٩ ـ ١٠ .
(٧١) ص ٣٤٩
(٧٢) ص ٢٨٨ .
(٧٣) اللباب ص ٢٢٧ .
(٧٤) الكلم المنظوم ص ٨٧ .
(٧٥) ن.م ص ٨٩ .

ومن قصيدة (تحت التراب ربيع) هذه الصورة الجميلة :

يا صاحبي ان زرت مثواها معي ... فليخفضن الطرف منك خشوع
لا ترفعن الصوت ثمة بالبكا ... ان القبور ومن بهن هجوع(٧٦)

وليتأمل القارىء عجز البيت الثاني وليتأمل في الصورة الحزينة وفي النهاية المؤلمة لكل حي . وهذا هو يطرق موضوع القبر مرة أخرى :

الى حيث لا شمس النهار مطلة ... ولا الليل نظار بأعينه النجل

وهذا هو يصف المجرة :

بيضاء في الليل تزهو ... وسط السماء المجرة
كشارع رصفوه . . . . بألف مليون ذرة . .(٧٧)

ويصف دجلة والفرات :

كأنما دجلة والفرات عند التلاقي ... ذؤابتان تزينان صدر خود العراق(٧٨)

وهذه صورة الطفولة بين النوم واليقظة :

تولى النعاس الطفل في حضن أمه ... فكان يغض الطرف طورا ويرفع
تغني له أغنية النوم أمه ... فيصغي اليها هادئا ثم يهجع(٧٩)

ويناقش الدهر ويرسم لنا فلسفة يائسة لا تنبع الا من قلب شاعر مرهف :

حسن وقبح أو رضى و بَغاضة ... يا دهر انك جامع الاضداد
فتشت من بعد الحريق مكانه ... فوجدت أنقاضا وبعض رماد(٨٠)

---

(٧٦) ن.م ص ١٤٣ .
(٧٧) ن.م ص ٨٩ .
(٧٦) ن.م. ص ١٤٣ .
(٧٧) ن.م. ص ١٩٥ .
(٧٨) ن.م. ص ١٦٧ .
(٧٩) ن.م. ص ٢٠١ .
(٨٠) ديوان الزهاوي ص ٣٩ .

وهذه صورة ساخرة سريعة في بعث التأثير المطلوب :

وواعظ غارق في لحية كبرت ... يأتي بكل قبيح ثم ينهانا
لا واللحى والذي في الوجه أنبتها ... ما ان تكون اللحى للفضل ميزانا[٨١]

وهذه صورة ساخرة أخرى :

القوم بالامس اختبرت كبيرهم ... فاذا كبير القوم غير كبير
ماذا تؤمّل من رؤوس ماقنت ... في القحف غير جهالة وغرور[٨٢]

وانظر الى هذه الصورة الممتازة التي لا يحسن النثر التعبير عنها أبدا :

لبنان صدر من الأكارم أضلعه ... بيروت قلب له في الصدر ارنان[٨٣]

ومن ديوانه اللباب نأخذ هذه الصورة لافول القمر :

قد مال يأفل بعد الموهن القمر ... كدمعة من عيون الليل تنهمر
أو غادة جعلت من فوق شرفتها ... تهوى الى البحر زخارا فتنتحر[٨٤]

ففي هذه الصورة وفي عشرات من أمثالها في شعره المتفرق تظهر قابلية شاعر حساس شفاف النظر دقيق الملاحظة سريع الالتقاط لصور الطبيعة .

د ـ ومن مميزات شعر الزهاوي مزجه بين الفلسفة التشاؤمية وشعر الرثاء وادخال فلسفة الخيام وآراء أبي العلاء والمتنبي وغير هؤلاء فأدى هذا الى تطعيم فن الرثاء القديم فكان في هذا اغناء للادب العراقي وايداع صور جديدة طريفة لا عهد لهذا الادب بها فيما سبق .

كان الزهاوي من المؤمنين بالجبر والقضاء والقدر وكان لا يؤمن بحرية الانسان واختياره وهو في هذا دون شك قد وقع تحت تأثير الخيام بصورة مباشرة . قال في قصيدة (لعل له عذرا) :

---

(٨١) ن.م. ص ٢٦٢ .
(٨٢) ديوان الزهاوي ص ٢٦٨ .
(٨٣) ن.م. ص ٣٩٣ .
(٨٤) نفس المصدر ص ٣٥٨ .

أتى غير مختار فارق مضطرا ... ولم يك لما عاش في نفسه حرا
وهل شكلوا منه الدماغ برأيه ... فيجلب بعض النفع أو يدفع الضرّا
أمالك يوم الدين لطفا بحاله ... فان الذي قد جاءه جاءه قسرا
تمهل قليلا واستمع ما يقوله ... لعل له عذرا لعل له عذرا
لقد طال ليل المؤمن القانع الذي ... ثوى في ظلام القبر ينتظر الفجرا
يؤمل بعد الموت عود حياته فقد ... وعدوه بعد طي له نشرا(٨٥)

ولعل هذا قد جاء من تأمله في الاحداث الطبيعية والظلم غير المنتقم منه والحق المهدور ـ قال ـ

وكم قد نجا باغ فما صدق الذي ... يقول على الباغي تدور الدوائر(٨٦)

وتظهر الفلسفة الخيامية مكررة في كثير من الرباعيات قال :

أكثر الترب عظام ... من ضلوع وصدور
سحقتها أرجل الدهر ... وأقدام العصور(٨٧)

وقال :

ان أمر الحياة والمرء ان مات ... جماد من اغمض الابحاث
علّ ما يحثى من تراب علينا ... بعض أجدادنا يكف الحائي(٨٨)

وقد أبدع في خلق صورة خاصة به في قوله :

تناسيت يا انسان انك ميت ... وأنت من الاموات ترفع أبياتا
وتمشي على الاموات في كل خطوة ... وتأكل أمواتا وتلبس أمواتا(٨٩)

---

(٨٥) الكلم المنظوم ص ١١٧ .
(٨٦) الكلم المنظوم ص ١٧٢ (١٣٢٣ هـ) .
(٨٧) الرباعيات ص ١٤٢ .
(٨٨) نفس المصدر ص ١٦٤ .
(٨٩) نفس المصدر ص ٢٠٦ .

وقد يغرق في تشاؤمه حتى يفوق الخيام في الايمان بعبث الحياة :

وانك في أعمـــاق قبـرك لا ترى وجوها ولا في القبر تسمع أصواتا
ولست بمسـؤول اذا مـا سـكنته أكنت عبدت الله قبـــلا أم اللاتا !

هـ ـ وان أهم ما جاء به الزهاوي ويشاركه الرصافي في هـــذه الفترة الحديثة انما هو (الشعر الوطني) وقد يبدو هذا الكلام غير واضح للقارىء حتى يعرف ان الشعر الوطني كما هو في دواوين الزهاوي والرصافي لم يعرف في الادب العربي في القرن التاسع عشر بهذه القوة وهذا الوضوح ومن العجب ان الشعر الوطني هذا قد غلب كل المميزات الاخرى في مدرسة الزهاوي والرصافي وعند كل الشعراء الشباب في العالم العربي حتى أصبح هذا الشعر أهم ظاهرة في أي ديوان وأفسد أحيانا كثيرا من قابليات الشباب الممتازة بانصرافهم كليا اليه وترك الجانب الانساني أو الاجتماعي حتى أصبح الشعر أحيـانا وكأنه مقـــالة سياسية • كان الزهاوي ومثله الرصافي قد تأثرا بالنزعات الفكرية وآمنا بنظرية الفن للمجتمع ولما كانت الفترة فترة صراع سياسي بين الشـــرق والغرب وبين الترك والعرب فكان حتما لهـذا الشعر أن ينمو نموا سـريعا حتى ظهرت أغلب دواوين الشعراء في هذا العصر وهي تزخر بالقصائد السياسية وهي تختلف قوة وضعفا ورداءة وجودة من وقت الى آخر عند مجموعة الشعراء • وعلى هذا فان الفضيلة التي يدعيها بعض السطحيين من النقاد الذين يقدرون الشعراء بمقدار اجادتهم في هذا الحقل لبعض الشعراء المعاصرين للزهاوي نفسه ومنحهم كل الفضل لهم دون هذا الشاعر المظلوم فيه شيء من القسمة الضيزى ! وان تحاملهم على الزهاوي لاسباب أخرى دعاهم الى حرمان هذا الشاعر من تبوء الدرجـة التي يستحقها بين شعراء الوطنية •

كانت قصائد الزهاوي الوطنية التي نظمها في فترة الاستبداد التركي من أكثر القصائد امتلاء بالحماسة والروح الوطني فهي تزخر بالحقد والكره للترك والحب للعرب والهجوم على رمز الطغيان الذي كان يلقيه المنتفعون بظل الله على الارض ! قال من قصيدة (أنين الاوطان) :

يا غـــيرة الله أبطشـــي بعصـــابة ألهـــاهم الجبـــروت والطغيـــان
فلقـــد أهـــين العـــدل في ديوانه ولقـــد أهين العـــلم والعرفان(٨٩)

وقـــال :

الدهر خان وكبـــار البلاد قضوا ودولةالترك سادت أمة العرب(٩٠)

وبقي شعره حماسة ثائرة حتى في فترة الاحتلال والانتداب وهي الفترة التي اتهمت فيها نية الزهاوي ووطنيته وهو بعيد عن خيانة أمته :

بات الرجـــاء وحبـــله فاذا بـــه عنـــد الصبـــاح بحبله مشـــنوق
لهفي عـــلى شعب كبـــير ماجـــد حرموه حكم الذاتوهو خليق(٩١)

وقال بعيد الاحتلال هذه القصيدة الرائعة :

يا أيـــدي الظـــلم شـــلّي ويا بـــلادي اســـتقلّي
ويا رجـــاء تعـــزز ويا مصـــاعب ذلّـــي
وأنت يا رايـــة النصـــر أخفقـــي وأظلّـــي

ولم يكن الزهاوي كما اتضح قبل هذا من المؤمنين بالعنف فهو من الذين يمكن أن نسميهم ((Conscientious Objecter)) ولهذا كان يدعو الى التمهل وعدم استعمال العنف الذي لا يؤدي الى حل سريع بل قد يعقـــد الامور : قال :

على الرافدين معا أمـــة لنيـــل التحرر تستبسل
وكأن الســـلامة في ريثها فينحل من نفسه المعضـــل
وكم فيالتريث من حكمة ولكنما المرء مستعجل ! !

وكان الزهاوي أولا وأخيرا لعراقه الحبيب فانه قال في أرضـــه وســـمائه وأنهاره ما لم يقدر غيره أن يجاريه فيه وها هو يقول :

---

(٩٠) ن٠م٠ ص ١٤٩ ٠
(٩١) رباعيات ص ١٣٠ ٠
(٩٢) ديوان الزهاوي ٢٩٥ ٠

ان طبـــتَ طبـتُ وان هنت يا عـــراق أهـون
اني عـــلى كـل حـــال كمـــا تـكون أكـــون

وان شعره الوطني اشتد وقوى وزاد غضبـا ونقمـة بعد الثلاثينات حينما ظهرت في شعره النزعة الاشتراكية وقد ضربنا مثلا من شعره في ديوان (الشمالة) عند الكلام عن اشتراكيته فليراجع هناك .

وكنموذج لاستخدام الشعر للنقد الاجتماعي والسياسي ملحمـــة « في الجحيم » وقد تكلمنا عنها في رسالة الماجستير وقلنا ان جذورها مأخوذة من رسالة الغفران وداتني وقد صحبتها العجلة في التأليف وانعدام اللغرض . فانه هاجم رجال العلم من الذين أعجب بهم وأحل (ليلى) وهي رمز العدل أو الوطنية في الجحيم ولم ندر ما هو الذي دعاه الى حشر كل هؤلاء الناس وهذه المثل الطيبة في الجحيم الا أن يكون قد أخذه تيار الفكرة أكثر من اتخاذها غرضا للتعبير عن هدف عميق يهدف اليه الشاعر وهذا شيء يؤسف له .

و ـ وأهم مميزات شعره وخصائصه هي ما فيه من « قصص اجتمـاعى » وهذا الباب من أجود وأجمل وأحسن ما جاء به هذا الشاعر الفذ المتعدد الجوانب والشخصية المبدعة . والغريب الذي يلاحظ في الزهاوي انه ألف أغلب قصائده القصصية في سنتين فقط . فقد ظهرت هذه القصص في الـكلم المنظوم وأول ما تظهر أمام عين القارىء قصة « أرملة الجندي » (عام ١٣٢٢ هـ/١٩٠٤) ثم تظهر « المستنصرية » وهي قصة يجرد فيها من « المستنصرية » شخصية يخاطبها وتخاطبه ثم « سلمى ودجلة » ثم « الى فزان » ثم « مقتل ليلى والربيع » ونظم عام ١٩٠٥/ ١٣٢٣ هـ قصة « يا أم » و « سعاد بعد زواجها » و « سلمى المطلقة » و « الغريب المحتضر » .

هذه هي أهم القصص وهناك قصص أخرى ظهرت بعد ذلك . والسؤال الذي يتمكن الانسان أن يسأله هو هذا : ما السبب الذي دعا الزهاوي الى التحول من القصيدة السياسية الى القصيدة القصصية ؟

يجب أن نفترض هنا افتراضا وانه لابد من الافتراض . فنحن نفترض

ان الشاعر قد وقع على نماذج مما يسمى بالانكليزية ((Ballads)) كما ان الزهاوي دون شك كان من المعجبين بالمسرح والسينما وقد عاصر السينما الصامتة وظهورها ورأى بعض أفلامها في القسطنطينية وحين أسست أول سينما في بغداد عام ١٩١١ فلا شك انه كان يؤمها وسيستطلع أفلامها والزهاوي كان من المحبين للافلام وكان الزهاوي قد مات في السينما وهو يشاهد أخد الافلام وهو في أرذل العمر فتصور ! !

ان عناصر القصة المسرحية وقصة الافلام الصامتة ظاهرة في قصصه • وقصصه مركزة وقصيرة قصر تلك المسرحيات والرقوق • ففي قصيدة « مقتل ليلى والربيع » نقرأ وكأننا نشاهد مسرحية أحال فيها الزهاوي حركات الممثلة الى ألفاظ فهو دون شك متأثر بمشهد من هذه المشاهد الرومانتيكية التي مثلها فولنتين في العشرينات عن صحراء العرب فعنصر الشر أو الـ ((Antagonist)) يظهر واضحا وبعد صراع مع المرأة • يظهر عنصر الخير أو الـ ((Portagonist)) ثم ينتصر الخير على الشر ولكن ليس بدون تضحية فان الشرير يضرب البطل الخير برصاصة تصيب مقتلا من « ليلى » وتقوم « المأساة » وعناصرها كالنهاية الفاجعة واختيار الابطال من الامراء والاميرات والاشراف • ومن العناصر المشتركة في كل هذه القصة هو « موت الابطال موتا قاسيا » فلا نجد أحدا من أبطاله من يموت حتف انفه ولكن أبطاله يموتون بالانتحار وأهم من ذلك بالسل وبتكرر هذا الموت بهذا المرض في عدد من قصصه قال :

أظن نبيلا مات من داء سله فقد قال بعض انه لثقيل

ويجب ألا ننسى عاملا أخيرا جعل الشاعر يندفع الى هذا النوع من التأليف القصصي المحموم وهو وجود الرصافي أمامه في الميدان فان الشاعر الرصافي من الذين نظموا في هذا الباب ومما يؤسف له اننا لا نملك تاريخا لقصائد الرصافي القصصية فلا يمكن أن نتبين بوضوح من هو الذي أثر في الآخر هذا التأثير المباشر في هذا الباب ؟ وان وجوه التشابه بينهما في كثير من الموضوعات واسعة مما يدعونا الى القول ان أحدهما نقل عن الآخر واقتبس من الموضوع الجديد الذي يكتشفه

زميله وان هذا باب ـ أي باب التشابه والتأثير ـ وحده في حاجة الى دراسة ومقارنة يخرج الانسان منها بدراسة طريفة دون شك .

ومن مميزات هذه القصص أيضا :

سهولة الناظها وتناسقها وعدم وجود الحشو الشعري أو العقدة الجانبية . فان القارىء ينساب في سهولة وهو يقرأ نقطة أو حادثة واحدة مركزة تشغل البطل وتكون سبب هلاكه وفي هذا لا يحتاج القارىء الى التنقل في المكان أو الزمان كثيرا ولا يضطر الشاعر الى افتعال الصور وعند ذلك افتعال الالفاظ والقوافي الملائمة .

والآن نريد أن نستعرض هذه القصص عن قرب :

في قصة (أسماء) يسمع الشاعر بكاء ويفهم بعد ذلك انه بكاء فتاة زوجوها وهي غير راغبة من شيخ كبير جاء بالمال يطمع أهلها قال :

وقد زوجوها وهي غير مريدة ... بشيخ كبير جاء بالمال يطمع

أما فتاها فهو حين يسمع يحدث له ما يحدث لكل الابطال الرومانتيكيين : فيبكي ويسقم جسده فهو أشبه في حالته العامة بمجنون ليلى :

وقد أخبروه الامر فهو من الاسى ... سقيم وما فيه المداواة تنجع

له صرخة في الليل ان نام أهله ... تكاد له صم الجبال تصدع

أما هي ففي ليلة زفافها تتجرع السم بعد صراع مع الشيخ الفاني فتموت :

فلما رأت أن لا مناص يصونها ... من الشيخ لما أوشك الشيخ يصرع

أحالت على كأس هناك معدة ... من السم واهتشت لها تتجرع

وبعد علاج وشكوى تموت « أسماء » وتحمل الى المقبرة ومعها أمها ومع المشيعين « نعيم » حبيبها فيكب « نعيم » على القبر يبكي ثم يؤخذ مريضا وبعد خمسة أشهر يموت ويدفن قربها :

فعاش سقيم الجسم خمسة أشهر ... ومات كذاك الحب بالناس يصنع

فواروه في قبر يجاور قبرها ... على ربوة انا لله نرجع (٩٣)

---

(٩٣) ديوان الرصافي ص ٦٨ ـ ٧٣ .

لا تظهر في هذه القصة روح المرأة المسلمة أو العربية التي غالبا ما تخضع للتقاليد • ان هذه الصورة صورة اوربية من فترة الثورة الصناعية والقرن التاسع عشر ألبسها الشاعر العباءة وأجبرها على الكلام باللغة العربية ولكنه نجح كثيرا في صفاء أسلوبه وسهولة ألفاظه وسرده المتصل حتى تمكن أن يقنعنا بالاحداث ويشركنا معه في التأثر وهنا يكمن سر الفنان ! أما قصيدة « طاغية بغداد » وهي في (ناظم باشا) فهي قصيدة من نوع الهجاء السياسي والتهجم على سيرة والي بغداد واجباره فتاة مسيحية على الفحشاء وكفاح تلك الفتاة في سبيل شرفها ثم هربها • هذه القصة نوع من النقد السياسي وهي أشبه بنقد محرري الصحف وكتاب الاعمدة السياسية على صفحات الجرائد منها بقصة أدبية والهدف منها تشجيع الشعب على الثورة على والٍ يحكمهم وهو ليس بأفضلهم ولا أحسن منهم خلقا وعصمة !

أما قصة (على قبر ابنتها) فهي قصة طريفة وهي نوع من قصص الاعتراف أو الحديث عن النفس وليس في هذه القصة جريمة كما قد أوحي الى القارىء في استعمال كلمة « اعتراف » ولكنها نوع من السرد الذي يتحدث فيه البطل عن نفسه والكاتب يكون الواسطة • فهناك الزهاوي ينقل لنا بأمانة قول أم تبكي على قبر ابنتها التي ولدتها وربتها ودللتها ثم زوجتها ولكنها حين ولدت طفلا ذكرا وجددت سلسلة الحياة ماتت هي بعد الوضع • ولدت طفلها وبعد ان وضعته أغمضت عينيها :

وضعته وبعد ان وضعته ... أغمضت عينها كما في المنام
رقدة قد طالت وطال انتظاري ... لانتهاء يأتي لها وختام

وما مضى ليس بأجمل ما في القصيدة ولكن الابيات التالية صورة رومانتيكية جميلة أقتبسها للقارىء :

يا ابنتي ! الشمس آذنت بالشروق ... فايقظي من هذا الرقاد العميق
يا ابنتي حديقتك الشمس استفاقت من نومها فاستفيقي

والعصـــافير يا بنتـــي تتغنـــى للضحى فوق كل غصن رشـــيق
وميـــاه العيون تمشي الهوينـــا فوق ظـــل تحت الغصون رقيق
وعـــلى المـــاء يا بنتـــي ورقات هـــي ما بين عـــائم وغريق[٩٤]

ويشرح الشاعر توقيفه في القسطنطينية وارساله مخفورا الى بغداد في قصيدة (أنين المفارق) وهي أول محاولاته ومن أوائل شعره ولعلها نظمت عام ١٣١٧ هـ وهي ليست على كثير من النجاح اذ يكاد ينعدم فيها عنصر القصة وان وضعها الشاعر بين قصصه[٩٥] .

أما (أرملة الجندي) فموضوعها أكثر واقعية من قصة « على قبر ابنتها » وهي قصة امرأة قتل زوجها في الحرب في سبيل الاتراك فضاعت وحرمت من التعويض لتربية طفلها الجميل وهنا يدخل الزهاوي نفسه أحيانا للوم السلطة :

ألم تر ان الســـل أنحل جسمها وحملهـا الاعـواز ما لا تحمـــل
منكـــدة قـــد طالبتك بحقهـــا فلو كنت تقضيه لها كنت تعـــدل

وبعد بكاء وشكوى يفقد طفلها أحمد وعيه من الجوع فيسمع الجـــيران صراخها فتغاث وفي الصباح تذهب تستجدي للقيام على طفلها وهنا يظهر الزهاوي ثانية في آخر القصة ليقول :

أأرملة الجنـــدي لا تخجـــلي فمن حقوق العلى ان الحكومة تخجل[٩٦]

اما قصة « سلمى ودجلة »

فهي قصة طريفة في موضوعها يعالج فيها الشاعر موضوع الحسد والغـيرة علاجا طريفا موفقا فان « سلمى » خادم شركسية جميلة في بيت آمر في الفيلق التركي واسمه (جعفر) وله زوجة « شمطاء فظة » اسمها « زليخة » ولها « فتـاة جميلة .. واسم الجميلة « دلبر » وكانت الخادم والابنة في عمر واحـــد وكانتا

---

(٩٤) ديوان ص ٧٩ .
(٩٥) نفس المصدر ص ٨٠ .
(٩٦) ديوان ص ٨٢ ـ ٨٦ .

تلعبان معا الا ان الجدري فاجأ « دلبر » فقضى عليها فأخذت الغيرة تأكل قلب « زليخا » لموت ابنتها وحياة سلمى .

فان زليخا كلما بصرت بها ... أحست بنار في الجوانح تسعر
فتسخط اذا لا شيء يوجب سخطها ... وتشتمها في وجهها وتحقر

وان هذه الغيرة تدفع الام الحزينة الى جنون غريب ووهم تراه وكأنه حقيقة :

سليمى خدعت الموت حتى دللته ... على دلبر ان الذي جئت منكر
سأجزيك شرا بالذي قد عملته ... من الشر اني يا سليمى لاقدر
أشوه وجها طالما بجماله ... فتنت عيونا نحو وجهك تنظر

وأمرت المرأة المجنونة خدام القصر أن يمسكوا بسلمى ويكتفوها ريثما تنفذ خطتها الخبيثة الشرسة :

فقصت زليخا فرعها من أصوله ... وكان يزور الارض ساعة ينشر
ونتّفت الاهداب منها وحلقت ... حواجب زجا راق منهن منظر

وغلبت عاطفة الانثى عقل سلمى وتصورت الامر كأنه لا نهاية له وان شعرها سوف لا ينبت مرة أخرى وحارت ماذا تفعل بشبابها ومن ينظر اليها بعد هذا التشويه فتنتحر :

رمت نفسها في دجلة فاختفت بها ... كأن لم تكن شيئا على الارض يذكر

ويفلسف الشاعر في نهاية القصة فكرة ذبول الحياة في عنفوان الشباب ويقول :

تفكرت في أمر الحياة فما الذي ... تعلمت منه أيها المتفكر
ترى زهرة قد اعجب العين لونها ... وفاح لها في الروض عرف معطر
تهب عليها الريح من بعد ساعة ... فتسقط من أوراقها وتبعثر (٩٧)

ومما يضعف القصة ان الشاعر لم يجعل السبب كافيا لانتحار « سلمى » فلو

(٩٧) الديوان ص ٨٧ ـ ٩٠ .

كان التشويه عضويا كالجرح أو السمل أو الكسر لكان أخرى بأن يدفع هذه الشقية البائسة للموت .

ويبدو لي ان التأثير المسرحي التركي على روح القصة كبير فان اسم الفتاة تركي وأحسن الشاعر اختيار أسماء بقية الابطال وأحسن اختيار البيئة للقصة ولعل بعض هذه الاسماء مفتاح للاصل الذي نظر اليه الزهاوي قبل أن ينظم هذه القصة . أما قصة « الى فزان » فهي قصة من قصص الرعب وطغيان الدكتاتورية التركية وقد اختار الزهاوي لقصته البداية المخيفة المرعبة المهولة فاختار ليلة شتاء قوية الريح مظلمة الليل ذات رعد وبرق وسحب :

شتاء وريح في دجى الليل زعزع ... يكاد بها سقف المنازل يقلع
ورعد يصم الاذن صوت دويه ... وبرق سحاب بالتتابع يلمع

وهنا يطرق الباب فتسمعه « سعدى » فنظرت خائفة الى زوجها « نديم » وخرج نديم الى الباب فرأى رجال الوالي يدعونه للمثول حالا أمام الوالي :ـ

وسار علي ومض من البرق لامع ... يصاحبهم والقلب بالهم موجع

وحين مثل أمام الوالي اتهمه ذك بالطعن على الحكومة وأراد أن يدافع « نديم » عن نفسه فأسكته الوالي ووضع في السجن وفي الصباح أرسل على بغلة الى « فزان » مدينة في جنوبي ليبيا وبقيت الزوجة قلقة فأخذت تشكو لامها وعلمت بعد ساعات بخبر نفيه فبكت وناحت وهي « تضم بتحنان الى الصدر طفلها » ويصف فيما تبقى من القصيدة عاطفتها نحوه واخلاصه وحبه لها وانها تريد اللحاق به وعلى صدرها طفلها الصغير « واجد » ولكن :

وبعد قليل مرّ من نفي زوجها ... المت بها حمى تهد وتصرع
فجنت بها واختل منها شعورها ... زمانا الى أن جاءها الموت يسرع[٩٨]

وان القارىء يلاحظ بسهولة الهدف السياسي المقصود من نظم هذه القصة الشعرية :

---

(٩٨) ديوان الزهاوي ص ٩٠ ـ ٩٣ .

أما قصة (مقتل ليلى والربيع) : فهي من القصص التي قلنا عنها قبل هذا انها متأثرة الى حد بعيد بالمسرحيات الرومانتيكية وكانت تعرض في القسطنطينية وبعد ذلك في بغداد وبلدان الشرق الاوسط الاخرى حتى أصبحت نصوص هذه المسرحيات أهم عامل من عوامل الذياعة والتأثير الفكري في بعض كتاب القصة الشباب الذين نشأوا بعد ذلك ففي الربيع الجميل تخرج :

ليلى وترباها سعاد وزينب ... يمرحن فوق مناكب الكثبان
مثل الدمى بل فائقات للدمى ... في منطق عذب وحسن بيان

وليلى من بنات القبائل العربية تجد في صدر الصحراء مستراحا وابعدن في احدى المرات عن الخيام :

ولهون بالازهار اعجابا بها ... وجهلهن ما أخفت يد الحدثان
حتى التقين على البطائح بغتة ... بمدججين ثلاثة فرسان

فدفعهم الطمع فيهن وفي جمالهن وشبابهن فهاجموهن فعلا صراخهن وحارت ليلى أين تذهب فاختفت ليلى خلف زينب وقد غلبها الخوف وهي ترتعد وفجأة يظهر « سعد العشيرة » ابن رئيس بني حردان :

واذا بنقع ثائر من جنبهم ... يدنو كزوبعة بغير تواني

فعرفن لون حصانه فهدأ خوفهن وكان قد خرج عله يحصل على نظرة من حبيبته ليلى فنادته مستغيثة وطلب منه الفرسان الثلاثة الانصراف عنهم وتناقشوا ثم رماه أحدهم برصاصة فرماه « سعد » بالرمح وكر عائدا نحو النساء فرماه الآخر بالرصاص فلم يصبه ولكن أصابت احدى الرصاصات ليلى « قضت منها لبضع ثوان » وجاش الالم في نفس سعد فقتل الفارسين الآخرين وبصورة رومانتيكية كانت « ليلى » منطرحة على الارض وكانت :

الخد موضوع بجانب زهرة ... والشعر منبسط على الريحان
يحلو لعين المرء مدّ يمينها ... وتروق منها فترة الاجفان
أشجاه منظرها فاسبل عبرة ... ومشى يردد زفرة الولهان !

ثم حملوا ليلى الى الحي واستقبلهم النسوة بالصياح والضجة ثم أقمن المآتم والام وسط هذا العزاء مركز الحزن والاسى وبعد الغسل لف جسم ليلى الناعم بالكفن وحملتها عشيرتها الى قبرها ومثواها الاخير •

ونظروا الى رؤوس القتلى فاذا بأحدها رأس معدد الديران[٩٩] أو مأمور ضريبة الدور كما نقول اليوم قد جاء بعد ان أعطاه وظيفته هذه « الوالي » نفسه وكان قد كتب على هذا الموظف الفاسد وصاحبيه أن يموتا أشنع موتة :

فجرى القضاء بأن يموت بخبثه موتا يخازيه مدى الازمان

والقصة أيضا جيدة الاختيار للاسماء والبيئة واختار الزهاوي عنصر الشر من بين موظفي الدولة التركية التي يكرهها الزهاوي وكأنه أراد أن يبرىء قومه العرب من الغدر بالمرأة وقلما يفعل عربي ذلك وهم الذين تغلب عليهم خلق الفرسان •

اما قصة « بكى على نفسه وناحا »

فهي تأملات لاحداث في غرام أحدهم وكان قد أحب حبا صمتا يائسا لفتاة « كاعب رداح » ويؤدي به الحب الى المرض بسبب حبيبته التي خيامها على شط الفرات • ونحن نترك الصورة وهي ناقصة فالمحب كان في النزع الاخير لا يريد أن يموت وكان ينتظر جواب حبيبته على رسالة أرسلها اليها مع الريح !!

أما قصة « سعاد » فأنها قصة زوجة كان زوجها قد ذهب بعيدا عنها للحرب كما يبدو ولكنه لم يعد مع العائدين وتشكو سعاد لأمها « خولة » :

يا أم اني اليوم صرت بأحمد بعد الوثوق بعهده أرتاب

فخففت الام مخلوف الفتاة المريضة ودعتها الى الانتظار ولكن صديق « سعاد » « رباب » تزورها باكية في المساء وتخبرها بأن زوجها قاسم حدثها بأن اللصوص هاجموهم وقتلوا « أحمد » ويصف الشاعر ألم الصدمة :

أخذت سعادا رجفة عصبية من هول ما سمعت وضاع صواب

---

(٩٩) الديوان ص ٩٣ ـ ٦٧ •

فكأنما نبأ الفجيعة جذوة وكأنما اخبارها الهاب
من بعد ما احترقت بها انقضت كما ينقض من كبد السماء شهاب !
وتقلبت فوق التراب كأنها حَمَلٌ تَعجَّل ذبحه القصاب !

وتلعب الخيالات بعقلها فترى أوهاما وكأنها الحقيقة فترى أحمد ماشيا في الطريق اليها :

وارى للطرق أمام أحمد واضحا لكن عليه - يا سلام - ! ذئاب
يا رب عونك فالذئاب تلوح لي مثل اللصوص وفي الأكف حراب

ويختتم الزهاوي قصته بمهاجمة الحكومة في عدم حفظ الامن :

درء الحكومة عن رعيتها الاذى متحتم ولها الحماية داب

وهكذا في هذا الخيال المريض كانت تعيد مأساة قتله وتصوره تصويرا حادا :

قد خرّ من الم الجراح بجنبه وتلطخت بدمائه الاثواب !

وهكذا قضى عليها الالم ..

كانت كعابا في غضير شبابها لو اخرّ الموت الزؤام شباب[١٠٠]

اما قصة الغريب المحتضر :

فهي قصة شاب مريض بالسل يتأمل خواطره ويناقش الحياة ويتذكر موطنه « الدجيل » منطقة شبه صحراوية جميلة ويسأل المريض نفسه عنها « وهل سمرات الرمل وارفة الظل !؟ » وطال مقامه في وطن الغربة للاستشفاء فجاءه كتاب من ابيه يامره بالرجوع ولكن اني له الرجعي وهو قريب من الموت . فطلب من ابيه في جوابه ان يخبر زوجه « جنانا » « بانني مود فلتحافظ على طفلي ! »

بني رضا عش في سلام فأنما حياتك بعدي يا « رضا » منتهي سولي

وكان موت (أبي الفضل) قد أحزن أباه « مصلح الدين » وكذلك « جنانا » اما الام « فهي تلوم زوجها بانه هو الذي ارسل ابنها الى دار الغربة فها هي الانثى التي فقدت واحدها ضعيفة منهوكة تتهم :

---

(١٠٠) ديوان ص ٩٩ - ١٠٢ .

وتمشي باقدام ضعفن عن الخطى ... الى زوجها مشي المقيد في الوحل
تقول له انت المغرب لابنها ... فارجعه يا بعل واجمع به شملي
بنيّ ليؤديني على رزئك الاسى ... بني ويغلي في فؤادي كالمُهْل
ولو كان خطبي فيك سهل حملته ... بني ولكن ليس خطبي بالسهل
مشيت حثيثا في شبابك للردى ... فيها ايها الماشي حثيثا على مهل

اما « جنان » فمصيبتها ايضا كبيرة في زوجها فها هي تتخيل صورة زوجها وتخاطبه :

وفيت بوعد في الرجوع الي يا ... ابا الفضل لكن بعد طول من المطل
لأنت هوى نفسي وانت سرورها ... وانت ربيع النفس في سنة الازل

وبعد اسبوعين في حياة الجنون الضاحكة الباكية الشاتمة الصامتة نجت من متاعب الحياة :

لقد كان بعد البعل غلا حياتها ... فاطلقها كف المنايا من الغل[١٠١]

تنقسم هذه القصص التي نظمت قبل الحرب العالمية الاولى بسنين الى ثلاث مجموعات :ـ

المجموعة الاجتماعية والمجموعة الرومانتيكية والمجموعة السياسية • وان اسلوب كل هذه القصص سهل بسيط خال من التعقيد متسلسل غير منقطع لا يجد القارى فيه نفرة وخيالا شعريا غريبا مفسدا لطبيعة القصة التي تحيا على النثر •

وفي هذه القصص حاول الزهاوي ان يعرض عجز الانسان امام الطبيعة والسلطة او الموت في وقت كانت فيه السلطة طاغية ظالمة والطبيعة لم تقلم اظافرها والآن قد خفت حدة هذه المؤثرات لا زال الموت معنا عاملا مشتركا بيننا وبين ابطال الزهاوي وسيبقى كذلك مدى الزمن •

ان هذه القصص لم تفقد خواصها وجمالها منذ ان نظمت حتى اليوم واني متأكد ان الاجيال التالية والقادمة سوف تعود الى الزهاوي ثانية تتطلع الى قصصه

---

(١٠١) الديوان ص ١٠٣ ـ ١٠٥ •

الجميلة تنشد فيها المتعة واللهو والسلوى • وسيبقى شعر الزهاوي يروى للاجيال عظمة مؤلفه وطبيعة نفسه وحبه للانسان والحقيقة بالرغم ممن يريد ان يطمس النور ويغطي على اسم هذا الشاعر الفذ وشيخ شعراء العراق في عصرنا الحديث هـذا ••

أ ـ مراجع المقالة :

١ ـ الثمالة ـ بغداد ١٩٣٩ •

٢ ـ الجاذبية وتعليلها ـ بغداد ١٩١٠ •

٣ ـ ديوان الزهاوي ـ قاهرة ١٩٢٤/١٣٤٣هـ •

٤ ـ رباعيات الزهاوي ـ بيروت ١٩٢٣ •

٥ ـ الكلم المنظوم ـ بيروت ١٩٠٨ •

٦ ـ اللباب ـ بغداد ١٩٢٨ •

٧ ـ المجمل مما اى القاهرة ١٩٢٢ •

8 — Longigg; Iraq 1900 — 1950, London, 1953.

ب ـ آثار الزهاوي :

١ ـ الاوشال ـ بغداد ١٩٣٤ •

٢ ـ الثمالة ـ بغداد ١٩٣٩ •

٣ ـ الجاذبية وتعليلها ـ بغداد ١٩١٠ •

٤ ـ حكمة اسلام درسلري (بالتركية) ـ قسطنطينية ١٩٠٦ •

٥ ـ الخيل وسباقها / ١٨٩٦م (نشر القسم الاول من المقالة في مجلة الهلال العصرية جـ ٢ للسنة الخامسة) •

٦ ـ ديوان الزهاوي ـ قاهرة ١٩٢٤/١٣٤٣هـ •

٧ ـ الدفاع العام ١٩٠٩ المقتطف مجلد ٤١ (حـ ١ ـ ٢ ـ ٣) •

٨ ـ الرباعيات ـ بيروت ١٩٢٣ •

٩ ـ رباعيات الخيام (ت) بغداد ١٩٢٨ •

١٠ ـ عليا الفلسفة/١٨٩٤ •

١١ـ الفجر الصادق ـ قاهرة ١٩٠٥ •

١٢ـ قصة عليا وعصام (مجلة لغة العرب ـ السنة الخامسة ص ١٠٤٠) •

١٣ـ قوانين تركية (عددها ١٧ قانونا) (ترجمة) •

١٤ـ الكائنات ـ قاهرة ١٨٩٦ •

١٥ـ كتاب في العاب الداما (خط) .
١٦ـ الكلم المنظوم ـ بيروت ١٩٠٨ .
١٧ـ اللباب ـ بغداد ١٩٢٨ .
١٨ـ المجمل مما ارى ـ قاهرة ١٩٢٤ .
١٩ـ محاضرة عن الشعر (ظهرت في كتاب سحر الشعر لرفائيل بطي ـ بغداد ١٩٢٢) . وقد ذكر بطي في كتابه (تاريخ الادب العصري في العراق العربي) آثارا شعرية خطية لا نعرف عنها اي شيء الآن منها :
٢٠ـ ديوان بعد الدستور .
٢١ـ ديوان بقايا الشفق .
٢٢ـ ديوان هواجس النفوس .
٢٣ـ الشذرات .
٢٤ـ عيون الشعر (مختارات) .
٢٥ـ ديوان نزعات الشيطان (نشره هلال ناجي في كتابه : الزهاوي وديوانه المفقود قاهرة ١٩٦٣) .
٢٦ـ مقالات متناثرة في الهلال والمؤيد والمقتطف ومجلة فروق التركية .

جـ ـ دراسات عن الزهاي :

١ ـ ابراهيم السامرائي : لغة الشعر بين جيلين ـ بيروت د.ت .
٢ ـ ابراهيم الواعظ (ناشر) الروض الازهر في تراجم آل السيد جعفر ـ موصل ١٣٦٨هـ/١٩٢٨م .
٣ ـ احمد فياض المفرجي : المرأة في الشعر العراقي الحديث ـ بغداد ١٩٥٨ .
٤ ـ اسماعيل ادهم : الزهاوي الشاعر .
٥ ـ الآلوسي (شكري) : تاريخ مساجد بغداد وآثارها .
٦ ـ أمين الريحاني : قلب العراق ـ بيروت ١٩٣٥ .
٧ ـ انيس المقدسي : العوامل الفعالة في الادب العربي ـ قاهرة ١٩٣٩ .
٨ ـ بدوي طبانه : نهضة الادب في العصر الحديث ـ قاهرة ١٩٤٦ .
٩ ـ جميل سعيد : تاريخ الادب العربي الحديث .
١٠ـ الحسني (عبدالرزاق) : تاريخ الصحافة العراقية . نجف ١٩٣٥ .
١١ـ الحكومة العراقية : الدليل العراقي ١٩٣٥ .
١٢ـ خضر العباسي : شعراء الثورة العراقية اثناء الاحتلال ـ بغداد ١٩٥٧ .
١٣ـ خلدون الوهابي : مراجع تراجم الادب العربي ـ جـ ١٦٣٢ ـ ١٦٩ .
(ذكر المجلات والجرائد وبعض الكتب) .

١٤ـ الخفاجي : رائد الشعر الحديث ـ قاهرة ١٩٥٣ .
١٥ـ خيري العمري : شخصيا عراقية ـ بغداد ١٩٥٥ .
١٦ـ داود سلوم : تطور الفكرة والاسلوب في الادب العراقي الحديث في القرنين التاسع عشر والعشرين . بغداد ١٩٥٩ .
١٧ـ ديوان الرصافي ـ ١٩٥٣ .
١٨ـ رئيف الخوري : الفكر العربي الحديث . بيروت ١٩٤٣ .
١٩ـ سالم علوان الجلبي ـ مجرى الاوشال (نقد ديوان الاوشال) بصرة ط أولى ١٩٥٤ .
٢٠ـ سركيس : معجم المطبوعات .
٢١ـ سعد ميخائيل : آداب العصر في شعراء الشام والعراق ومصر .
٢٢ـ شوقي ضيف : دراسات في الشعر العربي . قاهرة ١٩٥٣ .
٢٣ـ عباس محمود العقاد : ساعات بين الكتب . قاهرة ١٩٥٠ .
٢٤ـ عبدالرزاق الهلالي : الزهاوي بين الثورة والسكوت . بيروت د. ب .
٢٥ـ عبدالحميد حمدي : المختارات العصرية . بغداد ١٩٢٣ .
٢٦ـ عبداللطيف السحرتي : الشعر المعاصر والنقد الحديث . قاهرة ١٩٤٨ .
٢٧ـ الفاخوري (حنا) : تاريخ الادب العربي . بيروت ١٩٥١ .
٢٨ـ الكفائي : عصور الادب العربي . نجف ١٩٤٩ .
٢٩ـ مارون عبود : على المحك . بيروت ١٩٤٦ .
٣٠ـ مارون عبود : مجددون ومجترون . بيروت .
٣١ـ ماهر حسن فهمي : الزهاوي . قاهرة .
٣٢ـ مجلة الحرية : الادب الجديد (نشر) .
٣٣ـ محمد صالح السهروردي / لب الالباب . بغداد ١٩٣٣ .
٣٤ـ المقدسي : العوامل الفعالة في الادب العربي .
٣٥ـ مهدي العبيدي : حقيقة الزهاوي ١٩٤٧ .
٣٦ـ ناصر الحاني : محاضرات عن جميل صدقي الزهاوي . بغداد ١٩٥٤ .
٣٧ـ ناصر الحاني : موجز الادب العربي الحديث . بغداد ١٩٤٤ .
٣٨ـ هلال ناجي : الزهاوي وديوانه المفقود . قاهرة ١٩٦٣ .
٣٩ـ يوسف عز الدين : الشعر الحديث واثر التيارات السياسية فيه . بغداد ١٣٧٩هـ/١٩٦٠ .
٤٠ ـ يوسف عز الدين : الزهاوي ـ الشاعر القلق . بغداد ١٣٨١/١٩٦٢ .
41 — Brokelmann Geschichte der Arabischen Literatur.